انتقام طبيب

"قصص قصيرة"

د. ممدوح حمزة

كتـــاب الأجيـــال

رئيس مجلس الإدارة

إبراهيم عطيـة

لوحة الغلاف:

الفنان/أحمد الجنايني

الفهرسة

الفهرسة أثناء النشر إعداد

الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

حمزة، ممدوح

انتقام طبيب: قصص قصيرة

/ممدوح حمزة: ط١ - المنصورة

دار الإسلام للطباعة والنشر

٠٥٠/٢٢٦٦٢٢٠

٠١٢٢٦١٤٣٦٣

٨٠ص، ٢٩سم

تدمك 0-266-374-977

رقم الإيداع: ٢٠٠٧/٢٧٨٠

القصص العربية القصيرة

٨١٣,٠١

انتقـــام طبيب

حاول التغلب على رنين جرس التليفون بالنوم ولكنه ألـــح
فنهض من فراشه وتناول السماعة بيده وأحكم وضـــعها علـــى
أذنه ليسمع هذا الذي يزعجه في هزيع متأخر من الليـــل ولـــم
يتبين صوت المتكلم لأنه كان متهدجا متقطع النبـــرات واضـــح
الذعر ولكنه عرف صاحبه وهو يستنجد به ويدعوه فـــي لهفـــة
وتوسل إلى موافاته على عجل في بيته وأن يصحب معه طبيبا

جراحا لأنه يكاد يموت جزعا على ولده الوحيد الـــذي يعـــاني سكرات الموت .

وعد مكلمة بالحضور فورا ثم خلع ثياب النوم على عجــل وأخذ يرتدى ملابسه وشعر فجأة بأصابعه تتوقف عن عقد رباط العنق ووجد نفسه شبه ساهم أو سارح في لا شئ وسرعان مـــا انتفض وسأل نفسه لم لبي دعوة الداعي وقد عاف صحبته وحل رباط مودته وولي عنه ولم يعد يبالي به فعلام يستنجد به الليلة ولم لبي طلبه ووعده بالحضور فورا ؟

لم يدع هذه الأسئلة وأمثالها تستبد به بل محا كل ما كـــان مسطورا في صحيفة ذهنه ونسي كل ما أصاب كبريائـــه مـــن جزع ونفسه من آلام من جراءة انحراف هـــذا الـــصديق عنـــه ومشي مندفعا إلى نجده إنسان " لهفان " يمم دار طبيب جـــراح ذائع الشهرة وما كاد يطرق الباب حتى صافحه وجه الطبيـــب نفسه بطلعته الأنيسة وما كاد يعرف اسمه ويسمع اعتذاره على إزعاجه إياه في مثل تلك الساعة حتى رآه يمد له يـــده مرحبـــا ويقول بصوت كل نبرة من نبراته المفرحة تدل على الـــسعادة لابد إذن أن يكون الأستاذ الكبير "فلان" صديقك ؟ وذكر اســـمه وتابع الكلام وهو يبتسم .

قال : لقد جئتك يا سيدي الطبيب لأمر ذي بال يتعلق بحياة إنسان في زهرة الشباب يعاني أشد الألم وأن الرجاء معقود عليك لإنقاذه .

ما كاد الطبيب يسمع قوله في إنقاذ حياة مريض يتألم حتى رأي إشراقة روحية تفيض في وجهه فدعاه أن ينتظر ريثما يحضر حقيبة الآلات قال لسائق السيارة ليسرع في السير .

ولما كانت المسافة قريبة المدى لم يتيسر له ولم يسهل على الطبيب إيجاد وسيلة للكلام لكنه سأله عندما كانا يصعدان السلم ألا يسكن هنا فلان الأديب المشهور قال بلي ونحن في طريقنا إليه قال أولده " هلال " هو المريض ؟

قال : أجل وهو وحيده قال أعرف ذلك وما كادا يقفا عند باب الشقة في الدور الرابع وهما يلهثان حتى سمعا سقوط جسم على الأرض وصوت امرأة تولول .

طرق الباب ، ودخلا وإذا به يري سيدة بدينة قصيرة القامة ترتد عنهما على عجل وتطلب منهما معاونتهما على إنهاض زوجها فتعاونا في نقل جسم صديقه الشاعر إلى سريره.

فاجأه هذا المنظر غير المنتظر كان يتوقع رؤية الولد وهو صبي يافع ممتلئ الجسم غض الأهداب ملقي في سريره يتلوى من مغص أليم ولم يخطر بباله قط أن يري صديقه ملقي أرضا

يضع كفه اليمني على قلبه ويقطــع باليــسري أزرار قميــصه يحاول التنفس فيفتح فمه ويدير رأسه صوب النافذة ويــضرب صدره بكفه كأنه يستحثه على التنفس الذي استحال شخيرا لــم ينقطع إلا بعد أن حقنه الطبيب بالدواء واستفاق بعد هنيهة ومــا كاد نظره يقع على الطبيب حتى التفت إليه وصرخ في وجهــه قائلا أهذا هو الطبيب الذي اخترت ولوي وجهه عنه ؟؟

خرج الطبيب من الغرفة وبقي وحده مع صــديقه الــذي عاوده ضيق التنفس فسمعه يــستودعه ولــده وأخــذت شــفتاه تتحركان بكلام لا يصل إلى سمعه يريد المسكين أن يقــول لــه شيئا كثيرا أن يفضي إليه بأمور أن يعترف له بما يريح صدره ولكن أني له الفهم عن شفة تختلج ونفس يتقطع وصدر تحــول تنفسه العنيف إلى حشرجة .

ولما دخل الطبيب كان صديقه قد لــوي عنقــه وهمــدت حركته .

عزيز أن نري إنسانا كان منذ لحظة حيــا يــري ويــسمع ويفكر ويتكلم وإذا به ينطفئ في لحظة كأنه لم يكن وإذا به جثة مسجاة أول ما تفكر في التخلص منها ولحدها في التراب عزيز أن تتبخر هذه الروح وأن يتحول الجسم إلى رمة نعافها وننفــر من رؤيتها أين الروح ؟ أخبت كمــا يخبــو نــور المــصباح الكهربائي عشرات من مثل هذه الأسئلة ازدحمت في ذهنه وهو

ينظر إلى هذا الصديق الذي فقد جوهر الحياة بل فقد كل شيئ ولم يعد سوي ذكري تخلدها أفعاله التي ربما تنفع الناس إلى حين في هذه اللحظة طفرت دمعة من عينه وأخذ يجهش بالبكاء

أحس بيد رفيقه تجتذبه وسمع الطبيب يشير بضرورة نقل الولد إلى المستشفي وسمع من خلال نحيب الزوجة الأرملة دعوتها إياه إلى التكفل بدفن زوجها فلا أهل له ولا صديق سواه كما كان يقول لها ثم ودعت زوجها الوداع الأخير وراحت تساعد الطبيب في نقل ولدها إلى المستشفي .

لم يبق في البيت سواه والميت وأخذ يطوف به بلا وعي يقتل الوقت في انتظار انبلاج الصبح .

لم يكن عدد الذين شيعوا الراحل العظيم يزيد على الأربعين أما الذين اشتركوا في مواراته في التراب فلم يزيدوا على العشرة وقد كانت نظرات كل واحد من أولئك المشيعين أصدقاء الفقيد ورفقائه وزملائه ومريديه تتساءل أين أبناء الشعب يشتركون في تشييع الشاعر الأديب إلى مثواه الأخير ؟

لم يكن الفقيد إلا شاعرا أديبا من نوع فريد يتسابق عارفو أدبه على خطب وده والتقرب إليه ، وقد كانوا كالفراشات لا ينفكون يحومون حوله بل كانوا إلى الأمس القريب يكيلون له المديح والإعجاب والإكبار يحنون هاماتهم تعظيما لعبقريته أما الآن وقد انطفأت شعلة الروح وراح صاحبها وليس له ولد أو

أخ أو قريب يظهرون له ضروبا من الرياء فليس عليهم إلا التخلف عن وداعه الوداع الأخير كان العشرة يعزي بعضهم بعضا ومن عجب أنه رأي الطبيب الجراح بينهم وقد تبين الأسى في وجهه والحزن في نفسه فتقدم منه يسري عنه ثم سأله عن حال المريض نزيل المستشفي فأجابه بإشارة من رأسه ويده تدل على الاطمئنان .

حاول في أثناء عودتهم من المدفن استدراج الطبيب وقد صحبه في سيارته إلى الكلام بغية تحويل ذهنه والتسرية عنه ولكنه كان يسكته بأجوبة مقتضبة أو بإشارة بيده أو رأسه فقال له أخيرا .

هل كان الفقيد صديقك ؟

نظر إليه الطبيب نظرة تعجب وإنكار وقال أصحيح أنك لا تعرف أني كنت صديق الفقيد ورفيق صباه وشبابه ؟

فقال : أني لي معرفة ذلك ؟

قال : أنت صديقة منذ سنوات ألم يحدثك عني قط ؟

قال: لا أذكر حديثا خاصا بك بالذات .

قال: اسمع لو كنت أعلم حين كلفتني الحضور معك في تلك الليلة أنك ذاهب بي إلى بيت الفقيد يرحمه الله لاعتذرت ورفضت الحضور .

قال: يدهشني تفجعك وحزنك على الفقيد مع مـا تقـول مـن رغبتك عن تلبية استغاثته .

قال: لقد نكأت لي جرحا توهمت أنه (اندمل) .

قال: لم افهم شيئا من هذه الأحاجي .

قال: وهو يبتسم لا تتعجل الأمور .

وكانا قد بلغا المدينة وقبل أن يتركه قال له آمـل أن أراك غدا صباحا في المستشفي وانصرف بسيارته ولما ذهـب إلـى المستشفي في صباح اليوم التالي علم أن الطبيب صاحبه هـذا حضر في الصباح الباكر وأنه أشرف علـى الجراحـة التـي أجراها طبيب جراح سواه وانصرف دون أن يلقاه وقف يسائل نفسه عن معني تصرفات هذا الطبيب الجراح لقد حاول عبثـا معرفة سبب تجنبه عمل الجراحة وهو المحب لمهنته الحريص على شهرته ولماذا كلف سواه مـن الجـراحين عملهـا تحـت إشرافه ثم لماذا رفض أن يقبض أجر العمل مقـدما أو يـساوم بتكاليف إقامة المريض وأنه في المستشفي كما هي العادة فـي أكثر المستشفيات قامت مودة بينه وبين ذلك الطبيـب الجـراح كان باعثها الأول الفضول وحب الاستطلاع ثم تحولـت إلـى صحبة تطورت مع الأيام فصارت صداقة قائمة علـى تقـارب عقليتين وتجانس ذوقين ، وكان هو شديد الحـرص علـى أن

يقضي معه سهرتين في الأسبوع وقد سأله مرة ما هي الصداقة ؟

فأجاب الصداقة أنانية وإثبات الذات وإعجاب وضرورة اجتماعية

قال: أليس موت الصداقة رهنا بموت الصديق .

قال: هو ذاك إلا أن الوفاء لها قد يمتد في النادر القليل إلى الأبناء أما المثالية في الصداقة فلا أثر لوجودها في عصرنا المادي الحاضر .

قال: اذكر أنك قلت لي أن صديقنا الشاعر المرحوم لم يكن صديقك فحسب بل كان رفيق صباك وشبابك ولكنك لم تحدثني قط كيف عاشت تلك الصداقة ومتى ماتت قال سوف أريح نفسي بالاعتراف إليك بأمر فظيع وقع منذ أمد طويل .

كنا ثلاثة فتيان وفتاة من قرية صغيرة تصل بيننا وشائج قربي وعاطفة رحم وقد جمعتنا الأقدار في جامعة القاهرة وألفت الصداقة والمزاح المتقارب بيننا ورفعت الكلفة بيني وبين صديقنا المتوفى وبينه وبين ابنة عمي ولم أكن قد تزوجتها بعد وكنا نحن الثلاثة ذوي ذوق متجانس وتفكير متوائم لا ننفصل إلا عندما نصل إلى الجامعة إذ يتوجه هو إلى كلية الآداب وأنا وابنة عمي إلى كلية الطب ثم نعود معا إلى البيت وقد كنا في مسكنين متقابلين في طابق واحد في حي من

الأحياء المتواضعة ولم يكن فينا ميل إلى مباهج الصبا ومتع الشباب وإنما كنا موفوري الأمل كثيري التطلع إلى الظهور لا في قريتنا بين أهلنا بل في المجتمع الذي سوف يضمنا ويجلسنا في صفوف رجاله العاملين .

وقد كنت وصديقي حريصين على أن تكون أحاديثنا ومذاكرتنا قائمة على تقديس حرية الرأي واستقلال الفكر واحترام الرجل للمرأة وعلى إنماء قوة مناعتها من الرجل واعتمادها على نفسها ولست أغالي إذا قلت أننا لم نكن ثلاثة شبان يوسوس شيطان الشباب في صدورهم بل ثلاثة صالحين تفانوا في دروسهم وتساموا بأخلاقهم ويمكن أن أقول أيضا أننا قطعنا فورة الشباب وثبا كأنها لم تعترضنا وكأننا لم نتعثر بها ولم تكن نظرتي لابنة عمي وكنت أعيش معها تحت سقف واحد سوي نظرتي إلى صديق وزميل لا إلى خطيبة ستكون عما قريب زوجة لي قررت الجامعة إرسال رفيقنا " حسان " فقيدنا المرحوم في بعثة إلى فرنسا ونلت أنا وابنة عمي شهادة الطب في عام واحد وفي ذلك العام زفت إلى ابنة عمي وأخذنا معا ندفع أبواب الرزق كل من ناحية اختصاصه .

أخذت رسائل صديقنا " حسان " ترد إلينا من فرنسا تباعا وقد انطوت الأولي على وصف للوداع الصامت ورسم حزين للنفس المنطوية والقلب المشوق ورجاء بأن لا يكون البعد

سبيلا للفتور ودعوه إلى اتصال يكون سلوانا للغريب . لقد جعلتنا رسالته الأولي نشعر بصداقته شعورا جديدا من نوع غير مألوف وقد تتعجب مني إذا قلت لك أن تلك الرسائل فعلت فعلها الساحر في نفسي ونفس زوجتي وأن صداقتنا قد تحولت إلى حب لقد صرت أحب صديقي وأقلق عليه وأتضايق إذا تأخرت رسائله عني أحبه حب الإخلاص والوفاء والإكبار وكانت زوجتي تشاركني في هذه العاطفة الكريمة نحو أخ كريم عظيم ولكن للأسف الشديد لم أكن أعلم أن طبيعة المرأة واحدة في كل زمان ومكان سواء أكانت مثقفة أم أمية لا تميز أنواع الحب ولا تفرق بين جانب وعاطف ولا تفقه من ضروب شعابه وتنوع ألوانه إلا أنه غريزة وإشباع شهوة وقد لمست ذلك في زوجتي وأحسست به إحساسا ماديا إذا ما كاد صديقنا حسان يعود من فرنسا ويستقر ببيت بجوارنا وتعود صلاتنا إلى سابق عهدها حتى رأيت علامات الانجذاب بادية في قرينتي ظاهرة في عينيها واضحة في حركاتها وضحكاتها في صمتها وذهولها وانطوائها كنت أحس كل ذلك وأري فتور زوجتي عندما تنظر إلى واشتعالها عندما تتطلع إليه لم تكن حركات زوجتي وتقلباتها وخروج صديقنا حسان على غير المألوف من عاداتنا الشرقية معها سوي طوالع شكوك وريب تحولت عندي إلى ظنون وكبت ما في نفسي من كمد وأخذت أراقب صمت

زوجتي وأتدبر سهومها ثم حركاتها الطائشة المجنونة وأتفحص عينيها وزيغ نظرتها كنت أحس انكماشها ونفورها مني ثم إسرافها في إرضائي واندفاعها في أفاضه السرور على من جسد لا روح فيه وكنت ابتسم ثم أسأل نفسي أسئلة لا أقوى على الإجابة عنها ؟

وفي ذات مساء بغير تمهيد فاجأنا صديقنا حسان وهو يبتسم ابتسامة مزدوجة المعني مختلطة النظرة وقال لنا أنه تزوج من ابنة عمه لم أهلل للخبر السار ولم أعاتب صديقنا على عدم إشراكنا معه في فرحة بل انتحلت له الأعذار واشتركت زوجتي معي في التهنئة الفاترة التي قدمتها له لأن الخبر وقع عليها فجأة وقد استطاعت الصمود له .

لقد تغير الموقف بتغير الخطة كنت أري ابتسامات الكيد وسهام التحدي تتقاذف تارة من ناحية زوجتي المتعالية المتعاظمة وتارة من ناحية صديقها الخائن المغتاظ وكنت أرقب المعركة الخرساء كأني لست ضحيتها .

وقد طبقت شهرة صديقنا حسان الآفاق وذاع صيته بأنه كاتب بارع وشاعر ملهم وأخذت الصحافة تتباري وتتسابق في نشر بحوثه وقصائده تضفي عليه النعوت وتخلع عليه الصفات ويتهافت الناس على قراءة ما يبتكر ويبدع وكنت أقرأ كل ما ينشر له وأتبع ما يقوله النقاد في أدبه ولكني أقول لك الحق لم

أعد أتذوق أسلوبه ولا أستسيغ معانيه وصار يبدو لي مقاله كأنه جسد بلا روح ولما استطلعت رأي زوجتي في كتابات صـــديقنا وأدبه أجابت بأنها لا تطيقها ولم يكن حكم زوجتي غير الـــزور والمغالطة ولم يكن حكمي سوي حكم الناقم علـــى صـــديق لـــم تنهض البينة ولم يقم الدليل علي خيانته بعد .

كل شئ في حياتنا أنا وزوجتي وهو وزوجته كان يجـــري في مجراه الطبيعي ود وتزاور وعدم كلفة بين جيران أصـــدقاء ولكني لم أكن أغمض عيني عن المراقبة الـــصامتة وتـــذرعت بالصبر استقرئ النظرات واستشف معاني سريره النفس وطوية الرغبة من الحركات والإيماءات والألفاظ والكنايـــات واســـتنتج من هذا الصراع البارد الحامى أنه لم يحن الانفجار بعـــد أمـــا زوجته هو تلك الريفية الساذجة فلم يكـــن لوجودهـــا الإنـــساني معني من المعاني في هذا العراك الصامت .

ومن غرائب الاتفاق وأعجبها أن زوجتي حملـــت وكـــذلك زوجته في شهر واحد ، والأعجب من هذا أني عرفت الخبـــر بصفتي طبيبا لا من زوجتي بل من الجارة القروية التي أخذها الغثيان والقئ فلجأت إلى أنا جارها الطبيـــب كنـــت وزوجتـــي متفقين على أن نعيش بوسائلنا الخاصة بلا أبناء إلى حين فكيف تمت المعجزة ؟

وصمت لحظة ثم قال : لو كنت فلاحا جلفا لاتخذت الفأس أو الهراوة سلاحا للاغتيال ولو كنت من الأعيان والوجهاء لاستأجرت سفاحا للانتقام ولو كنت جبانا أو أحمق لانتحرت أو طلقت زوجتي ولكن لا يليق بي أنا الدكتور في الطب أن أتسلح بسلاح العامة من الناس وأن أقف موقف المتهم أمام المحققين والقضاة .

اتخذت من الزمان حليفا ومن الصداقة ركيزة ومن زوجتي الباغية أداة لاستبقاء الود بين الجارين ومن مهنتي قوة تتغلب على كل قوة وتعلمت رحابة الصدر وغض الطرف والتفاني والسكوت وتظاهرت بالانهماك في العمل وفي التغلب عليه بالتسرية تصنعت الابتسامة العريضة وحسن الترحيب وبساطة المعاشرة والتلهف على قضاء حاجات الصداقة بأريحية ونخوة لقد توسلت بكل أولئك للتغشية والتمويه وخنق الجريمة ودفنها ساعة وقوعها بالجريمة يا صاحبي يطمئن البال ويرتاح القلب من شهوة الأخذ بالثأر بالدم وحده يغسل الشرف الجريح – رحم الله المتنبي – وبالموت يموت حب الانتقام وقد نفذ السهم وحم القضاء وانطفأت شعلة الطفل المسكين ؟

قال جزعا : أقتلت الطفل البرئ يا دكتور فأجاب بصوت خفيض لقد مات وليد زوجتي ولو لم تزهق روحه لكان اليوم

في سن الفتي الذي عالجته ومـات والـده المرحـوم صـديقنا الشاعر الكبير وضحك ضحكة المتشفي .

لقد اقشعر بدنه ووقف شعره واشمئزت نفسه من خسة هذا الطبيب الذي سخر العلم للانتقام من الطفل البرئ وإشباع شهوة التشفي من الزوجة الآثمة قال له وقد كان يضرب كفـا بكـف ويحوقل زوجتك يا دكتور ألم تقف ابنة عمك على سـر مـوت وليدها

ضحك ضحكة جهنمية وقال :

لقد أسكت الموت الخائنة إلى الأبد قبل أن تفضح سري .

رفقا بولدي

بينما كان في قسم الشرطة منكبـــا علـــى بعـــض الأوراق يفحصها إذ قدم له الجندي رسالة داخل مظروف مقفـــل وهـــو يقول :

- هذا الخطاب مرسل لك يا أفندم أعطته لي إحدى الـــسيدات لأعطيه لسيادتك وفض المأمور الرسالة بغير مبـــالاة ومـــا كاد يستوعب سطورها الأولي حتى ارتسمت على وجهـــه آثار الاهتمام وما لبث أن تجعد بما يشبه الفزع ثم غرق في

ذهول عميق وتراخت يداه عن الرسالة في خور وراح يجمع بمنديله قطرات العرق الذي تفصد به جبينه وألقى برأسه في إعياء فوسدها بين ذراعيه فوق المكتب وأخذ يستجمع بذاكراته أحداثا من الماضي راحت تقفز إليه من طيات الماضي أشباحا شاحبة لا تلبث أن تستبين في وضوح ثم تتكامل حلقاتها حتى أسفرت عن جريمة بشعة ارتكبها ذات يوم !!

كان يوما لا ينسي يوم أن ارتدي لأول مرة البدلة العسكرية ذات الأزرار النحاسية اللامعة وعندما خرج إلى الطريق راح ينقل قدميه في خطوات عسكرية رشيقة كان يومها مراهقا مغرورا تدور في رأسه أحلام لذيذة تتضاعل بجانبها مغامرات أشجع المغامرين وكانت أنظار البشر جميعا تتركز عليه كان قد أعد خطة التمتع بكل دقيقة في " أجازة الخميس والجمعة " فبادر بتنفيذ الخطوة الأولي من الخطة المدروسة وسارع إلى إحدى دور السينما وعسكر أمامها وراح يتصفح وجوه روادها في أنفة وغطرسة ويبدو ان رائدات السينما كن شغوفات بالفيلم المعروض فمررن به دون أن يعرنه أدني التفات وبدأ غروره يتضاءل وتناقصت ثقته في نفسه وبدأ يتململ في عصبيه .

وفجأة لمح غادة ناضجة تدخل إلى السينما وحــدها فــدلف وراءها وأخذ مقعدا بجوارها وقبل أن ينتهي عرض الفيلم خرج متأبطا ذراعها وعادت الثقة تأخذ مكانها من جديد إلى نفسه .

وحاول أن يعرف اسمها فرفضت وقالت " خذ مني ما تريد ولكن دع لي اسمي فهو ملك لرجل آخر " وفهم أنها متزوجــة ولم يحاول أن يثقل عليها بإلحاحه فحسبه منها دقــائق ممتعــة يستلبها في غفوة من ضميرها وافترقا أخيرا على موعد ولكنها لم تحضر ولم يعد يرها أو يسمع عنها شيئا وظلت تلك المــرأة الغامضة تحتل جزءا من تفكيره ثم تناســاها وإن لــم ينــسي ذكراها وظل السر مغلقا حتى جاءت هــذه الرســالة تكــشف الغطاء عنه واعتدل في جلسته وراح يقرأ الرسالة من جديد .

سيدي أنا ممرضة بمستشفي قصر العيني أكتــب إليــك هـــــذه الرسالة تحقيقا لرغبة أخيرة لسيدة تحتضر " لعلك تذكر ذلك اليوم البعيد يوم أن لبست بدلتك الرسمية لأول مرة ولعلــك لم تنس تلك السيدة الغامضة التي لم تشأ أن تصارحك باســمها يومئذ لأنها لم تكن في حل من ذلك ولكنها اليوم تصارحك بكل شئ لا تحتقرني يا سيدي فلكل إنسان أخطاؤه وإن كانت غلطتي مخجلة فإن لها ما يبررها ولو في نظري حينذاك ودعني أبــدأ قصتي من أولها باختصار :

باعني والدي لشيخ ثري ولا أقول زوجني له فما كان لمثل هذه الزيجات التجارية أن تسمي بالزواج ولك أن تتصور يا سيدي أية عيشة كنت أحياها في كنف رجل أناني لا أكن له إلا كل احتقار واشمئزاز .

ومع ذلك لم أفكر في خيانته فقد كانت لا تزال تجري في دمائي بقية من الفضيلة والشرف ولم يمض وقت طويل حتى مرض زوجي فجأة وأصبحت حياته معلقة بخيط رفيع وتملكنى جزع شديد لا على موته فلم يكن أحب إلى من الخلاص منه ولكنه سيرحل قبل أن أنجب منه ولدا يرث ثروته الطائلة وقد تملكني يقين أكيد بأني أحق بهذه الثروة من إخوته تعويضا إلى عن الأيام السوداء التي أمضيتها معه.

وبدأ تفكيري يتحرر من كل مقومات الشرف وأصبح هدفي يتركز في أمل واحد هو أن أنجب ولدا يرث تلك الثروة الطائلة ولما كان تحقيق ذلك الحلم مستحيلا على زوجي المحتضر فقد بدأ ذهني يتجه في طريق ملتو وتبلور تفكيري وتركز في فكرة خبيثة داعرة .

وخرجت إلى الطريق أبحث عن رجل أي رجل يحقق لي فكرتي الطائشة ... وساقتك الأقدار مصادفة إلى طريقي

وسرعان ما استجبت لندائك دون مقاومة وربما أدهشك هذا مني حينذاك وربما ظننت أني إحدى بائعات الهوى ولكن أقسم بشرفي إن حق لي هذا القسم أني لم أكن أبغي متعة رخيصة بل كان هدفي شيئا واحدا هو ذلك الجنين الذي تركته في أحشائي لقد كانت تلك الدقائق التي التقينا فيها متعة عابرة في دوامة حياتك ولكنها بالنسبة لي كانت محور حياتي ومبدأ تعاستي وشقائي نعم لقد حققت أمنيتي الأثيرة وأنجبت وريثا آل إليه ميراث لا يستحقه وبذلك مهدت طريق الحرام قبل أن يولد فشب ابن السفاح ودماء الخطيئة تسري في عروقه نشأ مدللا يرتع في مال حرام وكنت أستجيب لكل مطالبه لأنه وحيدي وسبب تلك الثروة الطائلة .

ولم أكن أدري حينذاك أني أري فيه الشر لأنال حقي على يديه نعم أنا أصل البلاء واستحق كل قصاص تنزله بي السماء وكانت النتيجة الحتمية أن تبخرت الثروة بين أصابعه المتلافة واستطعت أن أنقذ النذر اليسير الذي يسد رمقنا ولكن الوحش الذي اعتاد الشرة لم يرض بالفتات فشدد على النكير حتى ينتزع مني آخر سلاح نواجه به الحياة وتراءي لي المصير الأسود أن استجبت لتهوره ولأول مرة صمدت أمامه ولكن تيار الشر المندفع كان أقوى من أن أتحداه رغم تصميمي على

الوقوف في وجهه وفي لحظة تهور أزاحني من طريقه ببـضع رصاصات أفرغها في صدري فوضع حدا لتعاسـتي أو لعلـه انتقم لمولده الملوث وإذا كانت النتائج ترجع إلى أسـبابها فأنـا سبب هذه المحنة فقد أوجدته من الدنس وأطعمته من مال حرام فزرعت فيه الشر وحق على أن أجني الرصاص .

أما أنت يا من بذرت الخطيئة في أحشائي وظننت أن عدالة السماء غافلة عما اقترفت فتناسيت جريمتك ولكن الأقدار كانت تتعهد البذرة التي زرعتها حتى صنعت منها مجرمـا لتقـبض عليه بعد جيل متلبسا بقتل أمه كنت فاقدة النطق تحـت تـأثير الصدمة ولكني أحس بما يجري حولي ورأيتك وأنت تصفد يدي ابنك بالأغلال ولعلك لاحظت صيحتي الواهنـة سـاعتها وأنـا أشير لك بأن لا تفعل فإنه ولدك ولكنك لم تفهم وظننتني أهـذي تحت وطأه الصدمة فدفعته بعنف إلى الخارج وتركتنـي إلـى غيبوبة طويلة لم أفق منها إلا الآن ولعل الله قد سمح لي بدقائق أخرى حتى أسجل اعترافي وأوصيك بولدك الذي لم يعد له في الحياة غيرك .

لعلك تتساءل الآن كيف عرفتك بعد هذه الحقبـة الطويلـة إنها ليست مصادفة فعندما تحرك ولدك في أحـشائي شـعرت برباط قوى يشدني إليك وأحببتك على البعـد ورحـت أتتبـع

أخبارك في كليتك وكنت أعرف اسمك منذ ذكرته لي يوم لقائنا وسعدت معك يوم تخرجت ضابطا وصرت أتتبع نشاطك فـــي الصحف وأعيش في حياتك دون أن تشعر بي ولم أجرؤ على التدخل في حياتك لأنك كنت زوجا لامرأة أخرى شــريفة وأبــا لأبناء آخرين شرعيين وقنعت بحبي الصامت وقد وجدت فــي ولدي منك عوضا مجزيــا والآن وبعــد أن عرفــت أخطــائي ودوافعها لك أن تحتقرني ولك أن تبصق على قبــري ولكنـــي أناشد أبوتك ألا تحقد على ولدنا المسكين فهو ضــحية بريئـــة وثمرة لخطيئتنا المزدوجة رحمة لولدك ورفقا به .

وطوي المأمور الرسالة بعناية ووضعها في جيبــه برفــق وشرد ببصره إلى حجرة الحجز التي تلتف جدرانها حول ابنــه الحبيس ولم يطل تفكيره وتردده فأمر الجندي بإحــضاره وقـــام من مكانه وقد انفعل بعاطفة أبوية جياشة وراح يتأمل الــسجين وهو يتقدم بين حراسة في خطوات ذليلة ونظرات نادمة وبــذل جهدا جبارا ليتحكم في أعصابه حتى لا تخذله أمام فلــذة كبــده الذي تمخض عنه الزمن فجأة شابا يافعا مجرما .

وتقدم نحوه فتراجع خائفا ولكن نظرة حانية فاضــت بهـــا عيناه أودعت السكينة في قلبه ودهش الحراس إذ رأوا الــضابط المحقق يربت ظهر المتهم في حنان ورحمة وأزداد عجبهم حين

سمعوا صوته يرق ويتهدج في همس لا تخف يا ابني حكايتــك بسيطة إن شاء الله وأرجو أن المحكمة تقدر ظروفك لأن ســبق الإصرار والترصد غير متوفرين في قضيتك وربنا يساعدك .

قناع الشهرة

رفع الأستاذ حمدون كوب الماء إلى فمه بتجرعه في سرعة وعصبية ثم قذف "عقب" سيجارته بيده إلى رصيف الشارع في حركة يائسة محمومة ثم التفت إلى صديقه الجالس إلى منضدة بجانبه أمام مقهي "السعادة" وقال في مرارة مكملا ما كان قد انقطع من حديثه :

... وأخيرا أنذرني - للمرة العشرين بأن نجوم السماء السابعة أقرب إلى وأسهل منالا من أن أري إنتاجي الأدبي مطبوعا في كتاب ومنشورا على الناس ... أرأيت ما صرنا إليه وكيف أصبحنا ولا اعتبار عندنا إلا للاسم فقط بغض النظر عن قيمة "البضاعة" رويدك يا أستاذ حمدون لا تتعجل ثابر وناضل وثق أنك سوف تصل بإذن الله .

ها ها ... سوف أصل أنا معك ... بالتأكيد سوف أصل إن شاء الله إلى " القرافة " قبل أن يصل إنتاجي إلى مطابع " دار النجاح الأدبية للنشر " آه لو كنت أستطيع شفاء من هذه العلة المزمنة ؟ آه لو كنت قادرا على التخلص من أسر تلك السلاسل والأغلال التي لا أكاد أبعد عنها وآخر منها حتى تجذبني نحوها وتشدني إليها ؟

مضت أسابيع قلائل على هذا الحديث، دخل بعدها الأستاذ حمدون إلى مكتب مدير دار " النجاح الأدبية للطبع والنشر " ولأول مرة يستقبله المدير الوقور ببشاشة واحترام مما أدهش الأستاذ حمدون وأثار ريبته ولا عجب فهو لم يعتد من قبل احتراما من أحد وخصوصا من هذا الرجل الصلد المسيطر على مطابع دار النجاح الأدبية بالذات وزاغت عينا حمدون دهشة وحيرة عندما دعاه المدير لكي يجلس على المقعد وكاد يغمى على المسكين من شدة الهول عندما سمع بأذنيه صوت

المدير نفسه وهو يستدعى الفراش طالبا لحمدون فنجان قهـوة قهوة ؟ لمين ؟

- لك يا أستاذ هو أنت شوية عندنا وإلا اية ؟
- لا ابدا ... بس يعني ... أعلى كل حال .
- بقي اسمع يا سيدي سأدخل معك في لب الموضوع رأسـا بغير لف ولا دوران أنت بالطبع تعرف المغفور له الأستاذ " احمد عبد العليم " الكاتب العبقري الكبير .
- أوه طبعا وهل يخفي القمر عليه رحمة الله .
- لقد مات المرحوم فخسره الأدب وسنخسر نحن بموته عـدة آلاف من الجنيهات فقد كان بيننا وبينه عقد يخولنـا حـق الانفراد بنشر إنتاجه الأخير في كتب خاصة تـصدر عـن دارنا تباعا ولست أذيع سرا إذا قلت لك أن الفقيد كان يحب المال حبا جما فقد سحب مقدما كل حسابه قبل أن يقدم لنـا ما فيه الكفاية وعلى هذا فأنا في موقف من الحيرة لا أحسد عليه إن لم نطيع الإنتاج المتفق عليـه والـذي لـم يقدمـه المرحوم فستخسر الدار مبلغا كبيرا لا تتحملـه ميزانيتهـا ولكن أين هو الإنتاج ؟ هذا هو السؤال لهـذا فكـرت فـي موضوع اعتقد أنك سوف توافقني عليه اسمع يـا ولـدى أنت أصيل نابغة موهوب لاشك في هذا .
- العفو العفو أخجلتم تواضعنا !!

- لا هذه ليست مجاملة إنها الحقيقة ولكني معذور يا بني والله يشهد ... إن أرقام التوزيع أمامي تؤكد لي إن كتابا ننشره للمرحوم " أحمد عبد العليم " الكاتب المشهور سيأتي بأرباح تتجاوز خانة الآلاف حتى ولو كان موضوع الكتاب عن مزايا الفول المدمس أو عن تاريخ نشأه "الطعمية في الشرق العربي ولكن ... ولكن إذا أنا جازفت ونشرت كتابا لحضرتك ولا مؤاخذة فهو وإن كان كله درر منثورة وجواهر مكنونة فلن توزع منه النسخ الكافية لتغطية ثمن الورق هذه هي الصراحة يا عزيزي .
- هه ؟ وأخيرا ؟
- فكرت في أن نطبع إنتاجك المحفوظ لدينا باسم المرحوم الأستاذ احمد عبد العليم وأنا واثق من نتيجة التوزيع وبهذا فقط تستطيع أن تقبض ثمنا مغريا وكفاك زهوا أن ترى إنتاجك مطبوعا يقرأه الناس حتى ولو نسب إلى غيرك فهكذا يكون الأديب المطبوع .
- اتفقنا .
- وغمرت السوق سلسلة أدبية من الروائع لفقيد الأدب الشرقي المغفور له الأستاذ احمد عبد العليم وتهافت القراء على اختطاف هذه الدرر النفيسة إلى أن فرغت جعبة دار النجاح الأدبية من نتاج المرحوم وهنا تقدم على المسرح

الأستاذ حمدون في تشف وخبث ماكر فنشر علـى الـرأي العام بيانا أعلن فيه أن الأدب الذي قرأه الناس معجبين بـه على أنه للمرحوم احمد عبد العليم ما هو إلا من تأليفه هـو وبقلمه وحده و ... " واتحدي مدير دار النجـاح أن يثبـت عكس ذلك " .

وكانت قنبلة الموسم الأدبية فاهتز الوسـط الأدبـي لهـذه الحادثة الفريدة واهتمت الصحافة بتلك المسألة الجديدة الطريفـة فنشرت الريبورتاجات المطولة عن الأديب المجهول الذي أرغم الناس على أن يقرأوا له ويعجبوا به بعد أن لـبس لهـم قناعـا استعاره من مرحوم مشهور .

وتسابقت الصحف ودور النشر إلى احتكار إنتاج الأسـتاذ حمدون وكتابة العقود معه غير أنه والشهادة لله كان وفيا فقـد قال ذات يوم لمدير دار النجاح الأدبية وكان في ضيافته بعد أن تراضيا وتم الصلح بينهما .

- هه والآن تحب أن أكتب لكم أم أنا في حل مـن أن أكتـب لغيركم ؟

فأجابه المدير في تظرف واستعطاف :

-عيب يا أستاذ حمدون ... وده يصح .

مش إحنا برضه أولي من الغريب .

تجربـــة

أصبحت عشيقة لمجدي بمطلق حريتها وملء إرادتها وفـــي الشهور الأولي من زواجها بإبراهيم الأمر يبدو فظيعا ومؤلمـــا ولكنه حدث حقيقة في ليلة زفافها ·انطلقـت الـسيارة تحملهـــا وزوجها إلى مرسى مطروح وكان الوقت قـد قـــارب الفجـــر والاحتفال الذي أقيم من أجلهما كان صاخبا وقد اســتمر لفتـــرة طويلة تلك الليلة ورغم ذلك صمم إبراهيم على الرحلة لم يكـــن يبدو متعبا ومن الواضح أنه أراد أن تكون خلوتهما الأولي فـــي مكان سامر منعزل بعيدا عن ضجة الأهالي ولـــذا لـــم يـــستمع لنصائح الأهل بأن ينتظر حتى الصباح .

وسألها إبراهيم في تلك الليلة في رقة ولطف عن رأيها في مشروع السفر فور الانتهاء من الحفل ولم تتردد في الموافقـــة فقد أرادت هي أيضا أن تكون تلك التجربة الهائلة من حياتهـــا في مكان بعيد حيث لا تأتي أمها لتنظر إلى وجهها في الصباح.

وفي مرسى مطروح كانت التجربة لذيذة كـــان الغمـــوض الذي يحيط علاقة الرجل بالمرأة قد انقشع وتفتح أمام عينها عن واقع رائع لذيذ وفي خلال شهر قضياه هناك كانت قد شـــعرت بسعادة غامرة وعينها كان يشع منها بريق الرضي والأمل فـــي مزيد من الحب وعرفت معني السعادة حقا في تلك الفترة ولكن الذي حدث بعدها كان أمرا لم تستطع تصديقه فلم ترتب حياتها لتسير على هذا النحو إطلاقا .

لقد اتخذت مجدي عشيقا لها وبكامل حريتها بعد زواجهـــا بشهور .

عرفت مجدي منذ زمن قبل زواجها كان زميلا لهـــا فـــي الدراسة بالجامعة وعندما تقدم إبراهيم يطلب يدها لم ترفض فقد كان شابا كامل المزايا جامعي يكسب الكثير من عمله وتحلم به كل فتاة ووداعها لمجدي كان أيضا عجيبا لم يكن فيه أسي مـــن جانبها أو من جانبه ولم يفعلا إطلاقا ما يفعله العشاق أخبرتـــه بهدوء أنها ستتزوج ولم يبد عليه أي اهتمام كل ما فعلـــه أنـــه قبلها بحرارة وكانت هي أيضا سعيدة لأن افتراقها عن مجـــدي لم يسبب لها أي ألم .

وحين رجعت مع زوجها إلى القاهرة لم تكن تفكـــر فـــي مجدي أي تفكير كانت مجرد مرحلة من مراحل الدراسة وقـــد

انتهت وهكذا استسلمت لسعادتها الجديدة مع زوجها ودق جرس التليفون ذات صباح وأمسكت بالسماعة لتعرف من المتحدث .

يا إلهي إنه مجدي أي شيطان هـذا كيـف عـرف رقـم التليفون وتحدث مجدي وأحست لحديثه رجفة تجتاحهـا وتهـز مشاعرها وكأنما عادت إلى الماضي من جديـد فطلـب منهـا مجدي أن تقابله وهي لا تدري أي شيطان أوحـي إليهـا بـأن توافق على طلبه وإلحاحه وإجابته إلى رغبته وهـي لا تـدعى أنها كانت ساذجة فقد كانت تعرف ماذا يريد وإمعانا في الثقـة بنفسها والإحساس بكيانها الجديد كامرأة لها منـزل مـستقل لا رقابة عليها طلبت من مجدي الحضور وتقـر بالحقيقـة رغـم بشاعتها عطفت على مجدي وهو يجلس أمامهـا فـي منزلهـا وكانت تشعر أنها مثل كولومبس قد اكتشفت دنيا جديدة مثيـرة وأن مجدي جائع ظامئ ولا تملك أن تبقيه جائعا ظامئا .

وسخرت من كل القيم عندما أشركت مجدي في ملـذات الدنيا الجديدة التي عرفتها وكانت تشعر بالـسعادة والأسـتاذية حين تظن أنها تلقن مجدي دروسا لم يعرفها من قبل وتنتقم من تلك الأيام التي لم يكن مجدي فيها يستطيع أكثـر مـن تقبيلهـا فحسب ومرت الأيام وهي في الواقع لم تـشعر يومـا بـوخز الضمير فقد كان لابد أن تمل رتابة الحياة مـع إبـراهيم تلـك الحياة التي أصبحت فعلا معه لا إثارة فيها ولا جديد

وأصبحت تصرفاتها مع زوجها تتسم بالعنف والعصبية بل والكراهية وفكرت أن تهجر زوجها فقد كانت حياتها مجموعة من الأفكار السخيفة ولكنها صبرت حتى وضعت طفلها الأول "هاني "هي أمه حقيقة ولكن الله وحده هو الذي يعلم من أبوه كانت تتأمله دائما علها توفق في اكتشاف شبهة بالزوج أو... العشيق ولم تستطيع أن تعرف قربة من ايهما كان شبها بها وحدها .

وحصل مجدي على شهادته الدراسية والتحق بوظيفة وحينئذ ألحت عليها فكرة الانفصال عن زوجها وعندما عرضت فكرتها على مجدي رفض أن يتركها تسعي للطلاق من زوجها ثم عاد فوافق بعد إلحاح منها .

وفي الصباح كان مجدي في منزلها يساعدها فى ترتيب حاجياتها وعندما أوشك الأمر على النهاية وحملت طفلها واقتربت من باب الخروج وورائها مجدي يحمل حقيبة .

وكادت تصعق وهي تري زوجها يقفز السلالم ليصل إلى مكانها فرحا سعيدا وهو يهتف .

- أنا ترقيت يا ليلي .

ولم يستطع أن يكمل كان قد رأي مجدي وحملق في وجهها وكأنه يوشك على البكاء كان كمن يستجديها أن تشرح له الموقف وفي لحظة كان عقلها قد ثاب إلى رشده وانهارت

أعصابها وأحست بالاشمئزاز من نفسها فبكت وصفعها زوجها ونزل يعدو إلى الطريق .

ولم تنظر إليه وهو يعدو نازلا السلم كانت في حالة ذليلة وطلبت من مجدي النزول وقفلت الباب على نفسها واحتضنت طفلها وأخذت تبكي .

تركها إبراهيم ولم يعد ولكنه كان شهما إذ لم يخبر أحدا بالقصة الحقيقية ولم يرسل إليها ورقة الطلاق وذات صباح قرأت في جريدة صباحية أن مجدي قد تزوج وأصبحت هي وحدها التعيسة الشقية

رفضت أن تعود لبيت أبيها وأمها وأمضت أياما وشهورا فريسة البكاء والحزن وأخيرا قررت أن تحيا لابنها لا بكاء ولا ندم ولا حزن وإنما توبة كان هاني دائما يسألها عن أبيه فتقول له أنه في سفر الأطفال جميعهم يسألون عن آبائهم إنه يسمع كل أترابه يتحدثون عن آبائهم مسكين ولدها .

وبعد سنوات أربع جاءها خطاب فضت الخطاب بيد مرتعشة إنها لم تتلق خطابا من إنسان منذ سنوات .

واختلج وجهها بفرحة هستيرية وسقطت يضع دموع على خدها كان الخطاب من إبراهيم يقول لها فيه أنه راقبها إبان السنوات الماضية وتأكد أنها كانت مثالا للاستقامة وهو حائر لا يدري هل كانت بريئة أم مذنبة ويقول إبراهيم "فلتنطوي هذه

الصفحة من حياتنـــــا" إنها ترتعش وهي تقرأ كلماتـــه ســوف يعود

وبأعصاب مضطربة للغاية حاولت تنسيق المنزل ودقت الساعة تعلن قرب موعد عودته وبدأت تتــزين للمــرة الأولـــي منــذ سنوات.

كان الإحساس بالسعادة يجعلها ترتعش وتــصورت أنهــا سوف تقع في إغماءة طويلة حين تراه وحملت ابنها إلى النافذة وقالت له إننا ننتظر أبوك وكان الطفل سعيدا وسمعت صـــوت نفير سيارة لم تهتم فلم تكن تعلــم أن زوجهـــا مالكـــا لـــسيارة واقترب الصوت كأنما يستلفت نظرها إنه إبراهيم يقود السيارة واكتسي وجهها بابتسامة واسعة مضطربة إنه أباك يـــا هـــاني ورأت زوجها يشير لهما إشارات مرحة بيده ويشع وجهه بنور وضاء وفي اللحظة التالية في سرعة خاطفة كان أمرا رهيبا قد حدث أنفلت ابنها من بين يديها كأنما تقفز من الشرفة ليعـــانق أبيه وصرخت صرخة أليمة وهي تري ابنهـــا يتهـــاوي إلـــى الطريق وسيارة نقل كبيرة تدلف بسرعة خاطفة فتصدم ابنها لم تستطع أن تبكي إنما أحست بجسدها كله من الخــشب الجـــاف وسقطت غائبة الوعي .

الآخذون بالثأر

رصاصة واحدة حاسمة وسريعة انطلقت بغتة مـن فوهـة البندقية "الهندي" التي يحملها زيدان فاستقرت على الفـور فـي صدر دسوقي الذي كان قد أخذ على غرة فلم يستطع أن يمد يده إلى بندقيته "الطلياني" الملقاة إلى جانبه ولكنه إزاء الكثرة الغالبة والقوة المسيطرة استقبل الرصاصة بهدوء ورباطة جأش وقـام من رقدته على أرض الحقل المملوءة بالعشب ليحملق في الذين هبطوا عليه على غير سابق موعد حاملين إليه الموت العاجـل الناجز ثم شملهم بنظرات متقدة من الغيظ والألم وقـال وهـو يصر على أسنانه ويزأر زئير أسد وقع في فخ .

- عملتوها يا كلاب ؟

وعلى الأثر تداعي جسد الشاب وتخاذلت ركبتاه فانكفأ على ظهره إلى الخلف وبندقيته "الطلياني" غير بعيدة منه ويده اليمني على صدره فوق الثقب الغائر الذي تفجرت منه الدماء ثم برقت العينان في ظلام الليل بوميض ومشى مخيف ثم مـــا لبثتـــا أن أغمضتا بعد أن انطفأ منهما البريق .

وتبادل زائرو الليل فيما بينهم عبارات مقتــضبة هامـــسة تعبر بما لا يناسب المقام عن الفرحة والسعادة بالخلاص .

وفي بساطة وهدوء تقدم " زيدان " نحو القتيل فوطأ رأسه بمزكوبة الأصفر وظل يدق عليها بالنعل المتسخ دقا قاسيا حتى انبثق من الفم دم آخر جديد غير دماء القلب .

وكأنما سرته كثيرا هذه الحال التي انتهي إليهـــا غريمـــة فضحك وضحك كثيرا ثم تنهد بارتيـــاح ومـــضي مـــع رفاقـــه الملثمين الذين تسللوا خلفه بين أعواد الذرة نحو الجسر الـــداكن الظلام وهم يشدون على يديه مهنئين قائلين :

- مبروك يا زيدان ... غدا طبعا الـــ ... إن شاء الله... يقام المأتم وتطلق الزغاريد وبالفعل ... ما كادت الشمس تشرق على قرية " ميت أبو فاضل " حتى صدحت فـــي الجـــزء الشرقي منها زغاريد صاخبة مهللة عالية وأمام الأعتـــاب نحرت الخراف وصفت الدكك والكراسي فـــي " المنـــدرة "

الكبيرة ... لتلقي التهاني والتعازي وبالطبع فهم الناس في القرية أن زيدان قد أخذ بثأر المرحوم شلقامي الذي قتله دسوقي منذ نصف عام عندما كان يروي القطن "بالبدالة" ليلا فلذلك حق الاحتفال ولهذا لزم التنويه !! .

بيد أن القرية لم تكن كلها تبادل زيدان وأهليه نفس الشعور فقد انطلق من الجانب الغربي منها صراخ وعلا ضجيج وعويل وهرع موكب مهيب طويل من الرجال والنساء والأطفال نحو الحقول وقد تقدم الموكب رجل أشيب يرتدي "زعبوطا" أسود ويلف على اللبدة شالا أبيض وكانت عيناه ذاهلتين ذهول الجنون وفمه مطبق إطباقة الغم الشديد والتحفز المخيف فما أن وصل إلى حقل الذرة وتوغل فيه قليلا ورأي ولده ووحيده "دسوقي" ممددا على الأرض وقد ارتوى الثرى والعشب من دمه حتى صرخ يجأر بصوت متفجع مذبوح ولدي ... ابني سلامتك يا دسوقي يا خسارة السباع لما تتهان يا حبيبي قم كلمني يا بني قم قل لأبوك ع اللي جرالك يا ضنايا يا خراب بيتي من بعدك يا دسوقي وطفق الرجل المنكوب يولول مرددا هذه الأقوال وهو جاثم على الأرض يمرغ شيبته في دماء ولده المتجمدة على الأرض ويهيل التراب فوق وجهه وعمامته وزعبوطه ثم لحق به باقي الموكب فكانت "مناحة" ملتهبة ضجت لهولها ملائكة السماء وما هي إلا ساعة أو بعض

ساعة حتى هدأ كل شئ فقام الرجل الأشـيب يجفـف دموعـه ويشخص ببصره الزائغ نحو ولده الميت الحبيب ثم يميل عليـه ويسوي بعناية من رقدته ويمـسح بطـرف زعبوطـه بعـض الأتربة التي لطخت وجه وحيده من فعل مركوب زيـدان ثـم التفت إلى النساء النائحات الناديات رافعا يـده فـي صـرامة يأمرهن بالكف عن "العديد" والبكاء والعويل .

-بس كفاية كده ابني عاش راجل ومات راجل وكلنا عـارفين مين اللي قتله وإلا يعني غرضكم تفرحوا العدوين فينا ... ؟ .

فصمتت النساء وران السكون إلا من صوت زوجة الكهل "أم دسوقى" وهي تلطم صامته خديها بعنف وشدة وتتمايل مـن هول الفاجعة يمينا ويسارا وقد لطخت وجهها بلون أزرق قاتـم وعلى أم رأسها كتلة من الطين وفوق جبهتها عصابة مـشدودة من خرقة سوداء .

وتناول أبو دسوقى البندقية الطلياني من جوار ولده ونظر إليها طويلا ثم نظر إلى من حوله من الرجال ومضي يحـدثهم في صفاء وهدوء كأن شيئا ذا بال لم يحدث وكأنه لـيس هـو بعينه ذلك الذي كان منذ دقائق يتمرغ فـي التـراب والطـين والدماء .

-بعد انصراف رجال الحكومة ودفن الغـالي ... و ... وبعـد كده يعدلها ربنا .

وجاء رجال الحكومة بعد قليل وكيـل النيابـة ومـأمور المركز وبعض ضباط الشرطة وكاتب وبضعة جنود وطبيـب وأدوا ولجبهم جميعا في فتور وملل وارضاء للواجب فقط فقـد كانوا يعلمون سلفا لطول تجاربهم أن الأرض الصلدة الخرسـاء إذا نطقت فوشت باسم القاتل فإن أهل القرية وخـصوصا أهـل القتيل لا ينطقون .

وقد حدث بالضبط كل ما توقعوه من تستر وتمويه وتملص فانصرفوا بعد ساعات في البوكس تاركين جسد دسـوقى بعـد تشريحه لأهله يدفنوه بأيدي الغرباء وفي غير احتفـال وبـدون إقامة مأتم وتلقي عزاء فإن هذا في عرف الريف لا يجب قطعا أن يكون إلا ليلة الأخذ بثأر القتيل من عائلة القاتل ولو بعد عام ولو بعد عشرات السنين فإن كل شئ عندهم يبلي وينسى ويجف إلا ... الدم .

مضت شهور طوال على هذه الأحداث وكانت جناية قتل دسوقى قد قيدت كالعادة "ضد مجهول" وما ذلك التهـرب مـن العدالة وعدم تمكينها من الأخذ بتلابيـب القاتـل إلا لأن أهـل القتيل وهم يعرفونه يصرون على أن يأخذوا ثـأرهم بأيـديهم ويأبون كل الإباء أن تعاونهم الحكومة في شئ كذلك يَعتبرونـه من صميم خصوصياتهم .

كانت ليلة مقمرة صفا فيها وجه القمر وإن لم تصف قلوب أهل ميت أبو فاضل مما يتأجج فيها من نيران الموجدة والضغينة والحفيظة وعلى المصطبة أمام بيت زيدان مال مهران على أذن شريكه يقول له وبين يديه "الجوزة" يداعبها بالماشة ويجذب منها الأنفاس في نهم ولذة .

- خللي بالك من نفسك يا زيدان يا زيدان يا خويا الجماعة مش ساكتين .

- جماعة مين يا عم يا شيخ خليها على الله .

- لأ لأ لأ أنت السنة دي شريكي وأكلنا مع بعض عيش وملح فاعمل معروف يا ابن الحلال خلي سنتك تفوت على خير وضحك الصديقان الشريكان

- وتبادلا الجوزة مرارا ثم قال مهران .

- ما تقوم بينا نشق على زرعة القطن ... ؟

- والله ماليش نفس الليلة يا مهران .

قلبي مقبوض كده ما اعرفش ليه حاسس بحاجة كده مش كويسه ح تحصل .

- يا شيخ بلاش الأفكار السودة دي على العموم الاحتراس ولجب وخصوصا أنك دي الوقت "مقطور" لكن يا اخي ما يكونش الحذر للدرجة دي ثم ما تنساش أنا معاك وأنت عارف أنا أبقي مين ومره أخرى ضحك الصديقان

الشريكان كان مهران رجلا جسورا من أشقياء القرية العتاة وبرهانا على صدق النظرية التي تؤكد أن الطيور على أشكالها تقع تآلف مهران مع زيدان وتشاركا على زراعة قطن ثم ما لبثا أن صارا أوفياء يضرب بوفائهما المثل فلم يعد أحدهما يستطيع أن يأكل لقمة دون أن يقاسمه فيها الآخر .

ولقد كان زيدان برغم جرأته البادية يشعر في أعماقه بإحساس "مركب النقص" ومن ثم فقد وجد في شجاعة مهران الحقيقية ما يكمل نقصه وما يجعله يركن إليه في حمايته وذود الضرر عنه خصوصا وأنه منذ قتل "دسوقى" وإلى عهد قريب صار في موقف لا يتمناه له حبيب .

ونزل زيدان عند رأي صديقه وشريكه فقاما من على المصطبة ومضيا يتمشيان وخلفا القرية وراءهما ثم انعطفا إلى جسر مظلم تحف به أشجار الصفصاف والجميز وأخذا يتبادلان حديثا وديا كانا يقطعانه بين الحين والحين بضحكات هادئة مزدوجة تنبئ عن رضا وألفة وانسجام وما هي إلا خطوات أخر حتى انقض على زيدان رجل أشيب يرتدي زعبوطا أسود ويتعمم بشال أبيض وكان في يده هذه المرة بندقية طلياني محشوة بالطلقات سددها إلى صدر زيدان الذي فوجئ بهذه

الحركة المباغتة فانعقد لسانه وأربد وجهه وغاص دمه ولكـن الكهل قال وهو يقهقه في نشوة غامرة ضافية .

- مساء الخير يا ابن اللئام عشنا وشفنا الأندال أولاد العواهر يكبروا ويعتدوا على السباع والجمال على كل حال خد مني دول على ما قسم علشان كمان ابني حبيبي دسـوقي يهـدأ ويرتاح في قبره وقبل أن يأخذ زيدان من الكهل الثائر مـا فيه القسمة نظر إلى نفسه فإذا بندقيته الهندي ليست معه بل مع مهران فنظر مصعوقا إلى صـديقه وشـريكه مهـران يستنجد به فإذا بهذا وياللهول يشيح عنه بوجهه بعيدا وقـد ارتسمت على شفتيه ابتسامة غريبة خبيثة وإذا عينيه تسطع بجلاء نظرات الغدر والخيانة ... وهنـا ذعـر المـسكين وكالفأر الحبيس في مصيدة محكمة أمام أنياب قـط ضـار جائع راح يدور حوله بعينين جاحظتين يمنه ويسره غيـر أن هذا كله لم يشفع لدي الرجل الأشيب الفائر ولـم يمنـع عنه المصير الرهيب المحتوم وهكذا وقع زيدان .

ومرة أخرى أشرقت على قرية ميت أبو فاضـل شـمس ذات وجهين وجه ضاحك باسم والوجه الآخر باك مكتئب حزين

ولم يكن هناك بين العائلتين المتنـاحرتين شـخص رابـح سوي مهران الذي وفد في المساء سرا على مندرة أبي دسوقى

يعزي ويهنئ ثم ينتحي بوالد الفقيد ركنا قصيا ويتنـــاول منـــه رزمة أوراق مالية خضراء مكافأة له على اســـتدراج صـــديقه وشريكه الذي لم تبرد دماؤه بعد إلى حيث لقي حتفـــه وخـــرج مهران من المأتم متسللا نحو شرق البلد يبكي بدموع التماســـيح حزنا ولوعة على شريكه الأمين وصديقه الحمـــيم وبـــين كـــل صيحة ودمعة تمتد أنامله خفية لتتحسس جيـــب صـــديره وقـــد تضخم ببقية المقاولة ومؤخر العمولة .

قصة في رسالة

لحن في الظلام

قال لصديقة " لا أدري هل ستصفني بالغباء بعد قراءة هذا الخطاب أم أنك ستختار لوصفي نوعا مؤدبا من التعبير فتقــول مثلا بأنني "جاهل بأمور النساء وطبائعهن " .

على أية هاك قصتي فاحكم على بما ترى ولو أنني أعلــم مقدما بأنك سليط اللسان وأنني لن أسلم من لعناتك وشتائمك تبدأ القصة برنين التليفون في عيادتي التي.استأجرتها فــي شــارع بوسط القاهرة وأمسكت السماعة لأسمع صوت ابنه عمي ذلــك الصوت الدافئ الحنون يسألني عن صحتي وعن أحوالي ولكــي لا يتطرق إلى ذهنك المستريب أن هناك علاقة ما بيني وبينهــا أبادر فأقول بأنها ســيدة متزوجــة وتعمــل كطبيبــة بإحــدى

المستشفيات وفوق ذلك هي أخت لي فـــي الرضـــاع وتطـــرق حديثها معي عن "بنت الحلال" وهل نظرت علـــى إحـــداهن أم لازالت ذلك الشاب المنطوي على نفسه الذي لا يعرف ســـوي العمل المتواصل ، فرددت ضاحكا بأن المرأة لم تتكرم بالدخول في محيط حياتي أو أفكاري

- لا لا كفاية كده يا احمد ... انت دلوقت دكتور وأكبر عائلة في البلد تتمني إنك تتقدم لخطوبة بنتها
- يا شيخة دنا لسه بدري على .
- تقدر تقوللي مستني إيه ؟ سنك دلوقت مـــش يجـــي ٣٠ ؟ وأدي أنت دكتور ناجح أنا مش عارفة إيه اللي عجبك فـــي حياة البانسيون واللوكانده .

ولا أدري لم شعرت في هذه اللحظة فقط بالندم على مـــا فـــات من سنين شبابي ذلك الشباب الذي أضعته في كفاح مرير منـــذ مات والداي واضطررت لهجر بلدتنا والإقامة فـــي العاصـــمة لأتمم تعليمي العالي ولأول مرة تحســـست فـــي حـــزن تلـــك الشعيرات . البيضاء التي أعرف مكانها جيدا فـــي رأســـي ... إنها نذير بفرار الشباب من حياتي الجدباء هكذا سريعا طويـــت ثلاثين عاما في صحراء الحياة ما عرفت فيهـــا ســـوي الـــسير الطويل المضني والعرق والدمع والأعـــصاب المحترقـــة فـــي سعير الفضاء الذي حولي حتى طفولتي كانت قاتمة مثـــل ليلـــة

باردة من ليالي الشتاء حرمت فيها الدفء الذي ينعم به غيري من الأطفال بين أحضان أمهاتهم فما أن ماتت أمي حتى رأيتني شريدا بين بيوت قريباتي وشتان بين حنانهن وحنانها وفي صباي مات والدي فنقلوني إلى بيت عمي في القاهرة في بيت تلك السيدة التي كانت تحادثني بالتليفون كانت يانعة الصبا وكانت بسماتها تفيض على من حولها بشرا وهناء وكانت تحنو على وكبرت في بيتهم صرت شابا فارع الطول حتى كان من يراني يحسبني أكبر سنا من ابنة عمي رغم أنها كانت تكبرني بثلاث سنوات وكثر خطابها لكنهم كانوا يعدلون عن الزواج منها الواحد تلو الآخر رغم أنها فتاة ممتازة تصلح كزوجة من الطراز الأول فهي جميلة طيبة السمعة مثقفة وهي غنية لمن يبحثون عن الثروة من وراء الزواج وفي يوم من الأيام انتحت بي زوجة عمي ناحية وقال :

- اسمع يا احمد ... تعرف آخر خطيب ما رجعش لبنت عمك ليه؟ علشان بيفتكر أنكم بتحبوا بعض .
- حقا إني أحبها ... ولكن كما يحب الأخ أخته ... ألسنا أخوين في الرضاع ... ؟
- مانا عارفة يا ابني لكن مين يصدق لو قلنا كده

وعرفت في تلك اللحظة فقط أنني كنت دون أن أدري السبب في عدم زواج ابنة عمي حتى الآن وأن وجودي بمنزلها سيظل

عشرة في سبيل زواجها وفي صباح اليوم التالي حزمت أمتعتي القليلة وغادرت المنزل بعد أن قلت لعمي إني سأسكن في مكان قريب من كلية الطب كان مجرد عذر لمغادرة المنزل لأنني لم أكن متأكدا من العثور على المكان القريب من الكلية وفي حجرة صغيرة بسطح منزل عال بدأت كفاحي المرير كان إيراد الثلاثة أفدنة التي تركتها أمي يكاد يكفي تكاليف دراستي ومأكلي وإيجار تلك الحجرة مادمت سأطهي طعامي وأغسل ملابسي بيدي وأرتق جواربي التي تتمزق من سيري سبع سنوات طوال إلى الكلية ومادمت سأستذكر دروسي على ضوء مصباح صغير من الغاز .

يا صديقي لازلت أذكر وأنا أنعم الآن بحياة مترفة تلك الليالي المظلمة الباردة التي عشتها في ذلك الجحر وكيف كنت أبيت الليالي على الطوي جائعا لاقتصد ثمن كتاب وكيف كانت مياه المطر تتساقط على من ثقوب السقف الكثيرة فأظل أبحث عن ركن في جحري يقيني ويقي كتبي من مياه المطر . ولازلت أذكر ليلة من ليالي الامتحان نفد فيها زيت مصباحي الصغير وكان على أن أراجع بعض الدروس فبكيت في الظلام يائسا وتذكرت طلبة غيري يجلسون في تلك اللحظة في حجرات مكيفة الهواء فمضيت دامع العينين لأراجع دروسي تحت مصباح في الطريق .

تلك يا صديقي صور من كفاحي المر فأين بالله المرأة التي كانت ترضي بتلك الحياة التي امتلأت دمعا وكفاحا وصـــدقني أنني لم أكن أشعر بالحرمان من النساء .

وكنت اعتبر المرأة أداة لهو وترف وشيئا من الكماليات ولم أكن من المترفين حتى أحس بأنها تنقصني وأنني محروم منهـــا ولكنني بعد ذلك الحديث التليفوني الذي دار بيني وبـــين ابنـــة عمي شعرت فجأة بأنني يتمت قلبي وحرمته من متعة كبري .

هي متعة الخفقان من أجل امرأة وأنني لازلت رغـــم تلـــك الحياة الناعمة التي أحياها الآن أعيش على هامش الحياة .

لقد اشتريت سيارة وهي أداة من أدوات الترف التي رأيـــت أن أكافئ بها نفسي بعد أن أصبحت طبيبا لكني نسيت أن اشـــتري امرأة وإذن فقد حان الوقت لاشتري تلك التحفة التي تحتاج إلى براعة في الانتقاء ومن أبرع من ابنة عمي في هذه المهمة قلت لها :

- أنا معاكي في أن حياة اللوكاندات حياة متعبة لكـــن الحـــق مش على .

الحق على بنت الحلال اللي مش عايزة تظهر وتنتـــشلني مـــن الحياة دي .

- أهي ظهرت يا سيدي ... اكتشفت لك عروسة مدهشة ... إذا حبيت تشوفها تعالي عندنا بكرة الساعة خامسة .

- ذهبت في الميعاد بعد أن تأنقت كثيرا فوجدت ابنــة عمــي ومعها فتاة متوسطة الجمال في ملابسها ذوق رفيــع وفــي صوتها الهادئ حنان وأنوثة وأفهمتني ابنة عمــي بطريقــة خفية بأنها ليست العروسة المرشحة لي ثم قدمت كلا منــا للآخر ... كانت زميلة لها وتعمل هــي الأخــرى طبيبــة بإحدى المستشفيات الحكومية وبدأنا نــتكلم كأبنــاء مهنــة واحدة ثم تشعب حديثنا إلى موضوعات شتي تكلمنــا عــن الأدب والفن وسألتها عن الأغنية التي تفضلها فقالت وفــي صوتها الرحيم حلاوة أنوثة متعطشة بأحب من غير أمــل لفريد الأطرش فأكملت مبتسما .

- " وقلبي راضي وسعيد " .

قالت ضاحكة :

- :" وأن طال على الأجل " .

- " أنت الحبيب الوحيد " .

نعم أحببت أن أغازلها ، وأنساني الصوت الحلو ذو الأنوثة المتعطشة ما جئت لأجله إلى أن قالت ابنــة عمــي بــأن مــن حدثتني عنها أمس اعتذرت عن الحضور الليلــة وأنهــا لكــي تعطيني فكرة عن شكلها ســتريني صــورة حديثــة لهــا ... وأحضرت صورة ما أن وقع بصري عليها حتى خفــق قلبــي بشدة وأحسست بأن هذا القلب الذي أغلقته ثلاثين عاما قد تفــتح

فجأة أمام صورة من الورق كما تتفتح الزهور تحت قطرات من ندي فجر رطيب أضحك على يا صديقي كيف شئت حينما تقرأ هذا الكلام أنا أيضا كنت سأضحك ملئ فمي لو أن صديقا كتب إلى بمثل ما أكتب الآن لكنني أقسم لك أنك لو رأيتها لما ملكت إلا أن تنظر مشدوها إلى الجمال العبقري ولقلت لنفسك كما قلت أنا لقلبي هل هي حقا مثلنا من لحم ودم ؟

ونظرت معي الضيفة إلى الصورة وقالت إنها تعرفها وأن "سلوي عفيفي" فتاة ممتازة وأن الصورة لم تبين كل ما فيها من جمال وفي وقار مصطنع أبديت إعجابي بصاحبة الصورة وقالت ابنة عمي لصديقتها إنها ترشحها كزوجة لي فهنأتني الصديقة وقلت وأنا أخفي رنة الفرح في صوتي أنا والله بحسبها نجمة من هوليود لولا كلمة الإهداء اللي كتبتها على الصورة وعدت تلك الليلة إلى منزلي وأنا أغني للفجر الرطيب الذي سينعش عما قريب حياتي الجافة وفي اليوم التالي جاء من يخبرني بأن ابنة عمي قد أصيبت في حادثة وقبل أن اصل إلى المستشفي كانت المسكينة قد أسلمت الروح ضحية لأداء واجبها الإنساني إذ انقلبت بها سيارة المستشفي حينما استدعوها بعد منتصف الليل لإجراء عملية ولادة مستعجلة .

وحينما كانوا يوارونها التراب كان يخيل إلى أني أدفن أنا الآخر آمالي في الفجر الرطيب فلم أكن أعرف سوي اسم

صاحبة الصورة ولم تذكر لي ابنة عمي شيئا عـن عائلتهـا أو عنوانها ورحت من جديد أغرق أيامي في العمـل محـاولا أن أخنق ذلك القلب الأرعن الذي خفق في أعماقي لـصورة مـن ورق .

وفي يوم من الأيام زارتني في عيادتي تلك الزميلـة التـي قابلتها في منزل ابنة عمي جاءت تعزيني وأبدت دهشتها لآثار الإنهاك الذي بدأ على من كثرة العمل ثم راحت تنـصحني ألا استسلم لأحزاني والحق أني كنت حينذاك من أحوج الناس إلـى مثل أحاديثها التي يشيع فيها جمال التفاؤل وحرارة الإيمان .

لاشك يا صديقي أنك تعرف أن في حياة الرجل تمر أحيانا فترات يود فيها لو عاد طفلا ليسند رأسه المتعب علـى صـدر امرأة لتسوي بأناملها الرقيقة الساحرة خـصلات شـعره التـي عصفت بها زوابع الحياة وأنا في تلك اللحظة كنت أمر بفتـرة من تلك الفترات ، فضغطت على يدها شاكرا وأنا اسـتمع فـي شغف إلى الصوت الدافئ الحلو وأحسست بيدها تربـت علـى شعري في حنان ... كانت تعاملني كطير جريح يحتـاج إلـى عطف وعناية ورأيتها تدعوني إلى نزهة خلويـة لأن الهـواء الطلق كما قالت سيفيدني فاستسلمت إليها كطفل .

وشاهدتنا حدائق القاهرة بعد ذلك كثيـرا وعرفتنـا ظـلال الأهرام في الليالي المقمرة وحسبتنا الخمائل عشاقا جئنـا نلـوذ

بها من أعين الرقباء وكنت أري صاحبتي تسر بهذه النزهـات وصدقني أن الهواء الطلق لم يفدني كثيرا كنت كلما نظرت إلى صاحبتي ونحن في تلك الأماكن الشاعرية تمنيت فـي أغـوار أعماقي لو أن صاحبة الصورة الفاتنة كانت مكانها وفي يوم كنا نستقل قاربا صغيرا في النيل قلت وقد توسطنا صفحة النهر .

- سأدع المجدافين حتى لا يستيقظ السكون الساجي حولنا؟
- قالت :
- إن من يرانا الآن يحسبنا ... .

ثم سكتت وأطرقت برأسها في خجل قلت أننا فى هـذه الـدنيا المليئة بالألم والشجن أحوج ما نكون إلى شئ جميل كالصداقة.

قالت :

والحب .

قلت :

- الصداقة أغلي وأنقي من الحب .
- فالحبيب يحب حبيبه وقد لا يفهمه ولكـن الـصديق يحـب صديقه ويفهمه وظننت أني أقنعتها لكني حينما نظرت إلـى عينيها وجدت فيهما شيئا كالشجن أو الأماني الذابلة
- وازدادت صداقتنا مع الأيام عمقا فرجوتها أن تـؤدي لـي خدمة كبرى هي أن تحل مكان ابنة عمـي وتتوسـط فـي زواجي " بسلوي عفيفي" فوعدتني في صوت يقطـر ألمـا

ولما أشأ أن أسألها عن سر هذا الألم لأني كنت اعتقد أن ذكر ابنة عمي قد أيقظ الأحزان في أعماقها ومرت أيام شعرت فيها بأن صداقتنا قد اعتراها شئ لا أدريه فدعوتها إلى السينما وفي الظلام أدهشني أنها كانت تبكي في هدوء لكي لا أسمعها كانت فكرة الفيلم تتلخص في أن من يحب حبا صادقا يري السعادة في إسعاد من يحب ولو قام ذلك على أنقاض هنائه لأن الحب تضحية وإيثار وتقابلنا في اليوم التالي كانت سعيدة وكانت تضحك كثيرا على غير عادتها ورأيتها تقدمني إلى فتاة ما أن وقع بصري عليها حتى عرفت فيها "سلوي عفيفي" كانت جميلة حقا كالصورة التي عشتها طيلة الشهرين الماضيين ولكن كان جمالها من ذلك النوع المصنوع من المرمر البارد مجرد رخام لا حياة فيه .

لا تسألني السؤال الذي أعلم أنه يتراقص على شفتيك الآن .

" لم لم تحاول بغزلك الرقيق أيها " الدونجوان " بعث الحياة في المرمر البارد " .

لم أحاول يا صديقي لسبب واحد هو أنها كانت ملكا لرجل آخر وضع في أصابعها خاتم الزواج وأنا ما تعودت الجلوس إلى بقايا الموائد .

ثم ماذا ؟ خطبت زميلتي الدكتورة تلك التـــي ســـرت فـــي حياتي الجدباء كما يسري نغم ناي حنون في ظلام ليلة طويلـــة حالكة السوداء ها انتذا قد عرفت قصة زواجـــي ولـــست أدري ماذا سيكون حكمك على ولكنني آمنت حين ذابت شـــفتاي فـــي دفء شفتيها أن الجمال ليس هو كـــل شـــئ فـــي المـــرأة وأن زوجتي بروحها وقلبها الذهبي أغلي امرأة في الوجود .

الذهاب إلى العباسية

استيقظ كامل رشدي في ذلك الصباح مسرورا جدا من نفسه فأخيرا أوكلت إليه مسئولية خاصة من قبل رؤسائه أخبره رئيسه البارحة أن مجموعة من المجانين يجب أن تنقل من المحطة في إمبابة التي تقع في الجانب الغربي من القاهرة إلى مستشفي الأمراض العقلية الذي يقع في الجانب الآخر من المدينة وسوف يقود كامل رشدي الشاحنة المحملة بالأفراد المجانين عبر المدينة وكان هذا عملا بسيطا يعتبره الآخرون بدون شك قليل الأهمية ومع ذلك شعر كامل بالفخر الشديد كان الأفراد الاثنا عشر خلفه استطاع أن يشعر بثقلهم في الشاحنة حين انطلق مسرعا ورغم الحاجز المعدني والزجاجي الذي يفصله عنهم استطاع أن يسمع أصواتهم المتقطعة والحادة

والغريبة المتكررة وظن أنها مثل أصوات الطيور فـي الأيـام الأولي للربيع ربما ظنوا أنهم سينقلون إلى مكـان مـا ليطلـق سرلحهم من الحجز وفي الحقيقة عندما فكر في الأمر لم يعرف ماذا قيل لهم كانوا في الشاحنة حين وصل وقد حيـاة مـشرف المحطة بحرارة وسأله عن أحوال أسرته وذكره بما يجـب أن يفعله وتمني له التوفيق كانت الشوارع مزدحمة كالعـادة فـي الصباح وزحفت الشاحنة فوق كوبري ٦أكتوبر واستطاع كامل رشدي أن يشعر بارتفاع درجة الحرارة وتدفق العـرق علـى حاجبه وشعر بأنه يتنفس بصعوبة بالغة وما الذي كـان يعـول عليه سوي أن يستمر واضعا الأمل في الله وبدأ ذهنه يتنقل دون اتجاه من الأشياء المبعثرة لذكريات الطفولة إلى وجـوه أولئـك الذي يقودون سياراتهم ببطء إلى جانبه إلى ما يذكره بالأشـياء التي يجب أن يفعلها إلى أسرته التي تتألف من ولـدين وطفلـة وزوجة والتي تعيش في شقة صغيرة قرب السيدة عائشة وفـي الوقت الذي عبر فيه الكوبري وتوجه إلي الشمال الشرقي نحـو محطة رمسيس نسي بسبب تأثير الحرارة وما يجول بخـاطره من ذكريات نسي مهمته وبدون شك تأثر الأفراد الذين يمكثون خلفه بالحرارة أيضا كانوا صامتين وبينما كـان كامـل يقـود الشاحنة نظر إلى الإشارات الأرضية على طول الطريق وتذكر مقهي معين قرب العتبة حيث كان يذهب أحيانا ويجلـس مـع

أصدقائه وعرف أن بعضهم سيكون هناك هـذا الـصباح إذ لا يوجد شئ آخر يفعلونه أرادوا أن يخرجا من منازلهم وجـاءوا إلى هنا ليلتقوا ويتحدثوا ويدخنوا وبدون وعى وجد كامل نفـسه ينحرف عن الطريق الرئيسية ويتجه نحو المقهي .

أوقف الشاحنة وشرح لـبعض الرجـال الجالـسين علـى الكراسي أمام البناء على الرصيف أنه سيغيب لمدة ساعة فقـط تقريبا وإذا حدثت أية متاعب يمكن أن يعثر عليه عند الزاوية .

كانوا يعرفون المكان وكانت الشاحنة حكومية ولهذا السبب لن يزعجها رجال الشرطة وبعد ساعة ونصف فيما بعد وبينمـا كان يتحدث مع أصدقائه تذكر كامل مهمته ربت أحد الرجـال على ركبته مازحاً حسنا ألا يجب أن تعود إلى العمل ماذا تفعل هنا على أية حال وهيمنت نظرة دهشة ورعب على وجه كامل قفز عن كرسيه دون شرح وجري خارج المقهي نظر أصدقاؤه إلى بعضهم البعض مندهشين كانت الشاحنة حيث تركها واقفـة في مكانها وكان يجلس أحد الرجال الذين تحدث معهم كما هـو حيث كان موجود طوال الوقت ولم يزحزح عينيه عن الـشاحنة وقال له إن كل شئ كان على ما يرام شكرا لك شكرا لك ألـف شكر قالها كامل بارتياح كبير كانت الـساعة الثانيـة عـشرة والحرارة مرتفعة جدا وبإمكانه دائمـا أن يقـول أن الـشوارع كانت مزدحمة جدا وهكذا استغرقت الرحلة وقتا أطول مما كان

متوقعا وكان كامل على وشك أن يصعد إلى الشاحنة ويقودهـا حين خطرت له فكرة أن يلقي نظـرة علـى المجـاني ن فـي المؤخرة وسار إلى مؤخرة الشاحنة وعندما فتح البـاب ونظـر إلى الداخل وجدها فارغة وشعر فورا بثقل مضاعف في جسده.

وتشوش ذهنه بشكل جنـوني وانتابتـه مـشاعر غريبـة ومروعة من الذعر والخوف والهلع كيف يـستطيع أن يـشرح هذا ؟ كانت هذه غلطة لكنه لم يقدر على الإقرار بـذلك أغلـق الباب هدأ نفسه والتفت ثانية إلى الرجل الجالس على الرصيف. وقال له ألم تلاحظ أي شئ غريب عندما ذهبت؟ أعني ألم تري أي شخص ؟ أجابه العجوز ماذا ؟ لا هل فقدت شـيئا ؟ ربمـا ظن أن الشاحنة تحمل تموينا من الدقيق والسكر وما إلى ذلـك المطلوبين كثيرا في المدينة وقد سرق بعضه لا . لم أر أي شئ وأصر على ذلك .

كامل رشدي بدوره لم يرغب أن يقول أي شئ وهكذا قال " معلش " صعد إلى الشاحنة وانطلق ما الذي سيفعله الآن ؟ لـم يكن الوقت مشكلة يستطيع أن يقول أنه توقـف ليأكـل شـيئا بالإضافة إلى ذلك لا أحد يتوقع أن تنجز الأشياء بسرعة كبيرة في القاهرة وبالتدريج بدأت خطة تتشكل في ذهنه كل ما كـان عليه أن يفعله هو أن ينقل اثني عشر مجنونا ولم تكـن توجـد قائمة بالأسماء وما يجب أن يفعله الآن هو أن يقنع اثني عـشر

رجلا بالصعود إلى شاحنته لن يكون هذا صعبا ويوجد بالقاهرة كثير من البشر وتخيل عدداً كبيراً من الناس لم يركبوا شـــاحنة طوال حياتهم ربما يستطيع فقط أن يوقف شاحنته قـــرب أحـــد الأحياء المكتظة بالسكان في المدينة ويسأل إذا كان أي شخص يرغب في نزهة وفي هذه الأثناء كان يتجه نحو منطقـــة فـــي المدينة حيث يتم فيها الكثير من عمليـــات البنـــاء حيـــث رأي مجموعة من الفلاحين الفقراء الذين جاءوا إلى القـــاهرة آملـــين في العثور على عمل جالسين على الأرصفة تغطـــي أجـــسادهم العباءات الرمادية الطويلة ويحملون فؤوسا ومعاول أوقف كامل رشدي شاحنته قرب مجموعة من الرجال حيث خرج منها وبدأ يتحدث معهم وضع يديه في وسطه وحاول أن يتصرف بطريقة سلطوية قدر الإمكان وسألهم هل تريدون عملا ؟

وشعت عيون الجميع وصرخوا نعم نعم وكان كل صـــوت ينافس الأصوات الأخرى يعلـــو ويـــنخفض كـــصوت الـــدجاج الصاخب .

قال لهم كامل رشدي أنني أحتاج إلى اثني عشر رجلا قويا وحيدا أستطيع أن أوفر لهم عملا وستكون هناك أسرة تتـــامون عليها وطعام تأكلونه وعرف أنه بهذا الكلام سيكون قادرا على كسب المتطوعين ثم قال " أريد فقط اثني عشر اليوم ربما أكثر من ذلك غدا من سيذهب " .

اختار اثني عشر فلاحا من الذين يبــدو علــيهم الجنــون (وظن أنهم جميعا يبدون مجانين قليلا) ووعد البقية أنه إن شاء الله سيعود إليهم في اليوم التالي .

لديه فقط الآن أماكن شاغرة لاثني عــشر شخــصا فــي شاحنته وأخبرهم أنهم لن يحتاجوا إلى المعاول والفؤوس .

كان الرجال ما يزالون يتصايحون بحماس عنــدما توقــف أمام مستشفي الأمراض العقلية قال له الحارس وهو يفــتح لــه البوابات الحديدية آه نعم كنا ننتظر وصولك وعندما دخل إلــى المبني الرئيسي وأعلن عن وصوله قابل مدير المستشفي كامــل رشدي مبتسما وسأله عن رحلته عبر المدينة .

وأجاب كامل آه كانت الحرارة مرتفعة جدا وكما توقع بدا أن المدير لم يلاحظ الوقت الطويل الذي استغرقه فــي عبــور المدينة الساعة الآن هي الثانية والنصف وهو غادر إمبابة فــي العاشرة

" توقفت من أجل الغداء وصليت وكان الازدحام شديدا .

" نعم نعم الحمد لله أن ازدحام الشوارع يزداد ســوءا كــل يوم أليس كذلك ؟

لكن أنت الآن هنا ومعك الرجال "

آه نعم معي الرجال جميعهم هنا الاثنا عــشر كلهــم وهــم مجانين كنت أصغي إليهم وهم يصرخون ويتــصايحون عبــر

المدينة ظننت أحيانا أنني سأفقد عقلي أنا سعيد بتسليمهم إليك أصدر المدير أمرا بنقل الرجال من الشاحنة إلى غرفة قريبة حيث سيتم فحصهم راقب كامل الرجال مندهشا قليلا عندما خرجوا واحدا من الشاحنة وبدأوا يتفحصون المكان الجديد نفذوا الأوامر ولم يقاوم أحد منهم حاول كامل أيضا أن يخمن رد فعل موظفي المستشفي عندما قادوا الرجال إلى المبني لا أحد بدا أنه لاحظ الفرق قال كامل للمدير حسنا تأخر الوقت استأذن في الانصراف فقال له المدير اجلس بعض الوقت لتستريح من عناء الرحلة وافق كامل وأثناء حديثهما هو والمدير سمعا صرخات حادة وأصوات مرتفعة في الجو .

- آه الرفاق الجدد .
- بالطبع يقاومون .
- لكن بدوا مطيعين أثناء خروجهم ماذا فعلت بهم؟
- أخبرتهم أنني سأمنحهم عملا .
- آه هذا ذكاء حاد منك .
- علت ضحكاتهما للحظة أو لحظتين فوق الأنين والصرخات.

أجـــازة

أدار عاطف سعيد فترة طويلة أحد السجون دون أن يكـــون هناك أدني تساؤل حول إدارته كان عاطف سعيد يحظي بتقدير خاص في المنطقة وكان يعتقد أنه نموذج يجب أن يحتذي بـــه جميع مأموري السجون وعندما كان يطلق سراح السجناء بعـــد انتهاء الأحكام الصادرة بحقهم كانوا يتكيفون بسهولة مع حيـــاة الجماعة فيمارسون مهنة المحاماة أو التدريس أو يؤدون خدمـــة اجتماعية أخرى ولم يحاول أحد أن يكتشف سر نجاحه قـــط إذ أن الجميع كانوا يخشونه كان أول ما يفعله عاطف سعيد حـــين يصل سجين جديد هو أن يستدعيه إلى مكتبه للتحدث معه وذلك بعد ارتدائه ثياب السجن ثم يأمره بـــالجلوس علـــى الكرســـي الوحيدة التي تواجه مكتبه وكما هو محدد يجئ السجين ولـــدي

دخوله إلى المكتب ينظر حوله متضايقا ومتسائلا أين سـيجلس عندئذ يشير عاطف سعيد إلى الكرسي الضخمة الموسدة خلـف مكتبه قائلا تفضل بالجلوس فيقول السجين ولكن أليـست هـذه كرسي المدير؟ فيقول مأمور السجن بالضبط لكن أنا المدير وأنا أقدم لك الكرسي أهلا وسهلا اجلس الآن وأخبرني عـن نفـسك ولماذا أنت هنا ماذا تحب أن تشرب شايا أم قهوة؟ هل تحب أن تدخن سيجارة لم يفشل هذا الأداء المدهش أبدا في صدم وإدخال السجناء الجدد وكان يسألون أنفسهم هل هذا الرجل مجنـون ؟ كان استثنائيا على أية حال وممتعا .

هذا الاستقبال غير المألوف والراحة في الجلوس والتـدخين وشرب الشاي جعل السجناء وتحـت إلحـاح مـأمور الـسجن يقصون حكاياتهم وكما هو معروف فقد اعتقل معظمهم بـسبب نشر أفكار خطيرة والبعض الآخر قام بقتل شخص ما في لحظة انفعال وقبض على آخرين متلبسين بالسرقة حين لـم يقـدروا على تحمل جوع أبنائهم وشـعر عـاطف سـعيد أن هـؤلاء الأشخاص متألقون فكريا شرفاء ورحماء أكثر من معظم الذين عليه أن يتعامل معهم في العالم الخـارجي وبـدأ يفكـر بهـم كأصدقاء ودون أن يستشير أحدا قام عاطف سعيد بعـدد مـن الابتكارات وبما أنه يؤمن بقوة بأن الفضاء الهندسـي للـسجن والبيئة لهما تأثير خطير على الحالة النفـسية قـام وبمـساعدة

السجناء بإزاحة القضبان وهدم الجدران ووضع ستائر على النوافذ وفرش الأرض بالسجاد والمخدات ثم أحضروا النراجيل وطاولات " الشيش " وحسنوا تجهيزات المطبخ وبعد أن استشف الموهبة في هذا الوسط بدأ المأمور بالتدريس للرجال وكانت طريقته المعتمدة هي طريقة المدرسة القديمة أو المدرسة الإسلامية حيث كان يعرف تلاميذه عن قرب ويشجعهم على طرح الأسئلة وتطوير أذهانهم .

أقام مكتبة وأسس مجلة أدبية حيث كان بوسع أي شخص أن ينشر القصائد والقصص ويعبر عن نفسه بحرية وفي أي موضوع وازدهر مجتمع صغير وحيوي داخل جدران السجن وازدهرت صناعة الفخار والنجارة وغير ذلك من الصناعات واستخدمت أرباح المبيعات في شراء الكتب والمواد التموينية وقسم النزلاء إلى فرق وقاموا بمباريات كرة القدم التي كانت شعبية جدا وكانت تقام حفلة كبيرة عندما يطلق سراح سجين وكأن هذا الشخص ذاهب في رحلة طويلة كان الجميع يغنون ويرقصون رقصات تقليدية على العود والناي وما يمكن أن نتوقعه سببا للبهجة غالبا ما كان مناسبة حزينة لأن السجناء كانوا عموما مترددين في المغادرة وكما كانوا يقولون غالبا البلاد كلها سجن واحد كبير كانوا مرغمين على البقاء وراء جدرانه لأنهم غير قادرين على الحصول على جوازات سفر أو

تأشيرات خروج وإذا كتب لهم الحظ أن يحصلوا على عمل فلن تكفي الرواتب لسد حاجاتهم وعلى الأقل كان يمكن توقع درجة معينة من الجهد داخل السجن كان عاطف سعيد العقل المفكر والمهندس المدير لهذا المجتمع المميز كان جميع النزلاء يحترمونه وكأنه والدهم المثالي كان يحظي بالإخلاص من الآخرين عن طريق الاهتمام بكل حاجات السجناء متذكرا أعياد ميلادهم ومشاركا في أحزانهم وكان يقول بطريقة نصف ساخرة إذا سببتم أية متاعب فسوف نزج بكم في السجن كان عاطف سعيد يلقي أحيانا محاضرات تتضمن خليطا منتخبا من الأحاديث الدينية والقومية والاجتماعية وكان يحب أن يروي لهم قصص الأبطال العرب القدماء أثناء الحملة الصليبية وكان أعظمهم بلا شك صلاح الدين الأيوبي وكان يشير من خلال المقارنة إلى أن سلاطين اليوم جبناء وفاسدون وطغاة ويجب أن يدفع معظمهم ثمن أفعالهم التي تتمثل في الخيانة والعمالة وغيرها وذلك بأن يخدموا خلف الأسلاك الشائكة والجدران كان أحد ابتكارات عاطف سعيد برنامج لمنح الأجازات وكان غير رسمي بالطبع وكان يعرف انه

إذا عرض الفكرة علي رؤسائه فسوف يسخرون منها أو ترمي بلا مبالاة أو ترفض بشدة وهكذا نفذ البرنامج دون أن يسأل أحدا لأنه اعتقد أنها فكرة جيدة وكان قد رأي كثيرا أن الأفكار

الجيدة تذوي وتموت لأنها لم تحظ بإدارة شجاعة رتب البرنامج تناوبا في كل أسبوع كان يرسل أحد السجناء لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وكان عاطف سعيد يخدره بشدة ويقول له إذا لم تعد سوف أسرح من الخدمة وكان الجميع يعودون دون إهمال ولم تحدث متاعب إلى أن جاء دور عماد لقضاء عطلة نهاية الأسبوع وعماد هذا روي قصصا كثيرة مختلفة عن سبب إرساله إلى السجن اختار أن يذهب إلى المدينة لقضاء بعض الأيام مخططا أن يعود في الموعد المحدد وفي اليوم الثاني لخروجه حدث فيما كان يتناول الغداء في مطعم في المدينة أن اندفع إلى الداخل شاب مقطوع النفس يبدو عليه القلق الشديد .

عرف عماد النظرة هو أيضا طورد مرة من قبل السلطات ونظر الشاب حوله باحثا عن ملاذ مرحبا أنت هناك تفضل بالجلوس قال داعيا الغريب أن يجلس على كرسي قبالته مرحبا بك لا تقلق مهما كانت مشكلتك فالمسألة ليست مهمة أنا أيضا خارج عن القانون وفي الحقيقة أنا خارج السجن الآن للقيام بزيارة قصيرة أراحت الكلمات الشاب للحظة صارفة انتباهه عن مشاكله الخاصة جلس الغريب ودعاه عماد إلى اقتسام وجبته معه وبعد أن قال بسم الله الرحمن الرحيم شارك الرجل متلهفا عماد الخبز والفول الموجودين أمامه كان جائعا بشكل واضح وخطر لعماد أنه لم ير أبدا شخصا جائعا كهذا منذ أن

كان في العالم الخارجي للمرة الأخيرة كان هناك دائما الكثيـــر من الطعام في السجن وكانت توجد حدائق تحظي بعناية جيـــدة وحيوانات صغيرة .

وما أن أكل الغريب حتى لمح عماد رجلين يرتديان الـــزي العسكري يدخلان إلى المطعم من الباب المواجـــه لـــه اقتـــرب رجلا الشرطة بعدوانية تعرف أحدهما على عماد لأنه كان لـــه علاقة باعتقاله وسأل رجل الشرطة بخشونة ماذا تفعـــل هنـــا ؟ أليس من المفترض أن تكون في السجن ؟ أجاب عماد بـــاحترام دون أن يخطر على باله تأليف قصة حسنا يـــا ســـيدي ســـوف أعود حالا منحني مأمور السجن أجازة فقال له رجل الـــشرطة قصة طريفة أيها الوغد الكاذب لا تستحق شيئا سوي السجن .

التفت الضابطان بعد ذلك إلى الغريب الذي كـــان يجلـــس بهدوء مرتعشا محاولا ألا يلفت الانتباه لكنهما تعرفا عليـــه ثـــم قبضا على الرجل بخشونة وألقياه أرضا وركلاه عـــدة مـــرات علئ ظهره ووجهه وبعد ذلك جرا كـــلا مـــن عمـــاد والرجـــل المضروب إلى سيارة الجيب المنتظرة وأخذاهما إلـــى ســـجن عاطف سعيد وعند وصولهم طلب الضابطان مقابلـــة المـــأمور وعندما دخل الضابطان والمجرمان إلى المكتب وجدوا المأمور ينظر نظرة سلطوية قدر الإمكان جالسا خلف المكتـــب مرتـــدا الزي الذي ينبغي أن يلبسه مأمور السجن ولدي رؤيتـــه لعمـــاد

استشف المأمور حدوث متاعب إلا أنه قرر بحكمة أن يحبس لسانه إلى أن يعرف أكثر عن القصة وقال أحد الضابطين مشيرا إلى عماد اعتقد أنك تعرف هذا الشخص أجاب المأمور وجهه يبدو مألوفا .

- عثرنا عليه في مطعم يأكل الفول مع هذا المجرم الذي كان ينشر أفكارا خطيرة رجلك زكي قال أنك منحته أجازة".

جلس عاطف سعيد بهدوء يفتل شاربه وبعد لحظة قال " لا تستعجل الحكم لقد أخبرك بالحقيقة " نظر الضابطان إلى المأمور باستغراب ودهشة وكانت تعابير وجهيهما تطلب شرحا.

" هذا صحيح لقد أطلقته سمعت أنكم تبحثون عن هذا الرجل وعرفت أنه صديق لعماد وهكذا استدعيت عماد وأرشدته أن يذهب إلى المطعم حيث عثرتم عليه لأنني شككت أن الرجل الذي تبحثان عنه سوف يأتي إلى هناك إلى أن تأتي السلطات حاولت أن أتصل بكم لأخبركم بالخطة لكنكم تعرفون كم هي الاتصالات سيئة في هذا البلد حتى أنني وأقسم لكم بحياتي لم أسمع رنين التليفون على أية حال أنا مسرور أن الأمور تمت بشكل جيد أي أن عماد عاد إلى حيث ينتمي وهذا الرجل الوغد الخائن الذي لا يصلح لشئ هو الآن خلف القضبان دهش رجلا الشرطة من براعة عاطف سعيد وهنأه

على خطته الرائعة تأثر عماد والسجين بدورهما بسرعة بديهة المأمور وكانوا ممتنين له لأنه حماهما .

وعندما وصلت قصة عاطف سعيد إلى المجموعة كسب المزيد من الاحترام ولم تسأل أية أسئلة أبدا أما رجال السلطة فأثنوا عليه لأنه يتمسك بقيم الدولة بحماس وينفذ عمله في معاقبة أعدائها بجدية أما الذين عرفوا الحقيقة فقد بدأوا بالبحث عن طريقة تكسبهم مكانا تحت وصاية عاطف سعيد وبالتدريج تورط عدد كبير من الناس في نشر أفكار خطيرة آملين أيضا أن يصبحوا يوما جزءا من مجتمع عاطف سعيد الأسطوري .

"جردتها الحياة من كل شئ حتى من الهموم حرمتها منهـــا
ولكن لقلبها الطيب لم تطق هذا التحرر وطرقت علـــى النـــاس
أبوابهم لتحمل عنهم أثقال همومهم وآلامهـــم فـــوق صــــدرها
الفسيح تسهر بها الليالي وتشقى النهار وهو يتساءل هل أعارها
الناس شيئا من أفراحهم ومسراتهم مثلما حملت عنهم أحـــزانهم
؟كلا ثم يقول لها "إليك يا فاطمة يا عصب سطوري تلك أسوق
هذه الكلمات فيها حزن وفيها بأس كما تعـــودت وليرحمـــك الله
حتى قلمي كأقرب الناس إليك لا يهديك مثلهم إلا الحزن اليائس
ولكن العزاء الوحيد يا فاطمة فى هذه الدنيا هو أن حياتنـــا لـــن
تطول فيها إلى ما لانهاية فإنها سنوات تافهـــة مـــن العمـــر
..وتمضى "

– فيم تفكرين ياحبيبتى ؟؟عيناك ساهمتان وكأنهما مربوطتـــان بذلك النجم الغائر فى أعماق السماء ..وذهنـــك شـــارد كهـــذه السحائب المبعثرة فى آفاق المغيب ؟؟مالك ؟؟

– لاشئ هل تحبنى يافهيم ؟؟

– لحبك ؟ اتشكين فى ذلك يا فاطمة ؟

– إذن لم لا تحب اختى شوقية المريضة ؟؟

– دائما أختك يا فاطمة تتدخل بيننا حتى فـــى هـــذه اللحظـــة القصيرة التى نغتصبها كل اسبوع لنخلو فيها الى بعضنا ؟

كما تعرف يا فهيم اننا وحيدتان غريبتان فى هـــذه الحيـــاة وبما أنى أكبرها بخمس سنوات فهى تحس بحاجتها إلـــى كـــأم وأب وأخ وأخت أنها قطعة هامة فى كياني لا أستطيع إغفالهـــا لكم أتمنى يا فهيم أن تعتز بهذا المنفصل عن وجـــودي مثلمـــا تحبني ؟؟

– أتبكين يا فاطمة ؟؟إنها تضحية بلغت حد البلاهة

– أية تضحية ؟؟إن ما أقوم به تجاه أختي المريضة الوحيدة لا أعده إلا بعض الواجب فساعدني عليه .

– أكل هذا بعض الواجب ؟؟إنها هبه حمقاء

– فهيم ارحمني بإنسانيتك النبيلة إن أختـــي عنـــدما تـــشفى ستدرك أنك صاحب التضحية ..لا أنا

- أمرك يا فاطمة ولف الحبيبين هدوء ذو ظل قاتم كـــان يلقي بأحمال من العواطف المتباينة فى أعماقهما لتصطرع فى عنف ثم تبعث بدموع غزيرة تنساب من عيني فاطمـــة على خديها فيمسحها فهـــيم بـــشفيته ثـــم تـــرك الحبيبـــان .مجلسهما من شاطئ النيل وسارا متهادبين جنبا الى جنب بحذاء الأشجار القابعة فى كهف المـــساء تتمـــتم بأوراقهـــا الخضراء اللحن الابدى فى آذان النيل العجوز ولاحظ فهـــيم أنها تتجه فى سيرها نحو مستشفى الطبيب الذى تعالج فيـــه أختها "شوقية "فشاركها خطواتها باهتمام مـــصطنع قاطعـــا صمتها العميق بحديثة عن أمالة وحبة وعـــن هـــذا العـــش الجميل الذى يستعجل اوانة ليضمهما كأسعد زوجين وكانت هى ترد على اعتذارا ته وتعجلة ليوم الزفاف فـــى حنـــان عذب وأمل نقى كهذه الدموع الساقطة فى غـــور الظـــلام والتى لا يستطيع أن يمسحها بشفتيه وسط الطريـــق كانـــت تعشمه فى الغد القريب ولكنه كان يستعجله لأنه عاجز عن قهر عواطفة وكانت تؤثر شـــفاء أختهـــا علـــى ســـعادتها الزوجية ولكنه كان يعارض هذه التضحية ويرى فيها أمـــلا معذبا ساحقا ولذلك تصبر بالوعد الجميـــل ودعـــا الله فـــى سريرته ان يشفى أختها سريعا أو ينقلها إلى جـــواره فـــلا تعوقه عن تحقيق سعادته

ووصلا المستشفى ودخلا حجرة المريضة فانفجرت فاطمة باكية حينما رأت أختها "شوقية "منطرحه على السرير شـاحبة اللون غائرة العينين تحرك يديها المعروقتين فى آلية تكاد تسمع الجالسين صرير عظامهما وعاتبت المريضة أختهـا بـدموعها ونبراتها الباهته لتأخرها وكأن عبراتها كانت تقـول تتركينـي مريضة كده يا فاطمة وتغيبي علشان خطيبك ؟..يا ترى كنـت الليلة معاه وكان اللقاء جميل حالم كله عطف وحنان ؟

يا بختكم..؟وجلس فهيم جانب المريضة يحدق فى هيكلهـا المشحوب ويحبس أنفاسه شفقه كأنه يخشي أن تنفخها بعيدا عن السرير كما ينفخ ورقة "مكرمشة "هشة واعتذرت فاطمـة عـن تغيبها ثم فهمت من الهمس المبعـوث مـن أعمـاق الموميـاء الضامرة أن الطبيب طلب مزيدا من النقود لأنه بـدأ يعالجهـا بأدوية معينة جديدة فأغمضت فاطمة عينيهـا لتلقـى بـدمعتين وتطويهما فى منديلها وقالت لها .

"ومعايا فلوس زى ما هو عايزيا أختى خليه يتم علاجه بـالحقن الجديدة وربنا يشفيك "وطفقت تؤانس بين خطيبها وأختها وتلقى بالموضوع المشترك المثير لتربط الاثنين بالرأي والمـشاورة وتتبعث المحاورة من مكامنها الرائقة فتحدث فهيم مع شـوقية فى تحفظ أول الأمر ثم ما لبث أن تحمس للحديث وكانت إذا ما تحدثت اليه فى خفوت دنا هو بأذنه منهـا يـستوضح نبراتهـا

وفرحت فاطمة للخيط الرفيع الذى بدأ يمتد بين فهيم وأختها المريضة ولتتم المؤانسة انسحبت من الحجرة إلى خارج الشرفة تشتم نسمة الليل وتتنهد بقوة لتزيح عن صدرها بعض ما عانته فى سبيل أن تحمل حبيبها فهيم على أن يتنازل عن ضيقة ويجاملها فى أختها التى هدها المرض الذى أصيبت به منذ شهرين فاذبل عودها الرطب وحطم فيها كل شئ حتى الرغبة فى الحياة ومد فهيم بصره يقلبه فى وجه الوردة الذابلة فشعرت بعينيه تتفحصان وجهها فسددت عينيها نحوه تستفسر الارتسامات المطبوعة على سماته فتقابلت نظراتهما طويلا كأنها على ميعاد فلم يجد بدا من ان يهمس اليها :

- ربنا يشفيك يا شوقية علشان تكونى ويانا فى كل حته نروحها .
- ربنا يخليك لنا يا أستاذ فهيم مين غيرك يمسح دموعنا ويتمنى لنا الخير ؟

فرد فى حنان :

- طبعا انا أخوك يا شوقية وكل اللى عندى من إخلاص وحب هو لك إنت وأختك
- أنا عارفة ..إنى اسأت اليك كتير جدا عشان بأحرمك من أختى وباتطفل عليكم لكن ..

ولم تكمل جملتها فقد ضغطت الـدموع علـى الجفـون وارتعشت شفتاها الصفراوان فأمسك بيدها وكأنه يمسك بـذراع دمية باردة وقال :

- اللا..اللا..ليه كده ..؟

دا أنا وفاطمة بنتظر شفاكى علشان نفـرح احنـا الثلاثـة ..مش تتجدعنى امال ؟

- إن شاء الله ربنا حيشفينى ويحقق أحلامكم

- ولك على ياستى لما ربنا ياخد بيدك إنك تصيفى معانا فى اسكندرية فى شهر العسل ولما ربنا يرزقنا ببنـت اسـميها باسمك ..وضحكت لكلماته بما يـشبه الرنـات المكتومـه لقطعه النقود الزائفة وشاركها هو بضحكة عاليـة دخلـت أختها فاطمة على إثرها وهى مبتسمة تطلب إعادة النكتـة لتشاركها السرور ونظرت إلى ثغر أختها حيث كانت آثـار البسمة ما زالت تتمايل للغروب ولم تكن فاطمة تتوقـع أن دموعها ستؤثر هذه المرة فى حبيبها وتـؤدى إلـى هـذا التعاطف والتمازج بينه وبين أختها فقد كان يكلمها فـى لطف وعناية ويسامرها بالبسمة حينا والنادرة الخفيفة أحيانا وفاطمة سعيدة قريرة تحس فى سـويداء قلبهـا أنهـا أدت رسالة سامية فى التقريب بين الحبيب والأخت ولمـا هـم بالاستئذان صافحها فى ألفة ومحبة وإعدادها بالزيارة كـل

يوم ثم همس فى اذن فاطمة قبل مغادرة البــاب الخــارجى "بصراحة أنا كنت اجهل روح أختك ولطافتها يا فاطمة إذا احتجتى اى فلوس علشان علاجها فطالبينى بها مــن غيــر تردد فشوقية أصبحت عندى زيك تمام وزى ما انتى عايزة بالضبط ولم يكن الشهر الأول يمضى حتى كان الحبيبــان يحتفلان بشفاء"شوقية " ويستمعان الى موسيقى "الجــاز " من بعيد بينما حلق ثلاثتهم حول المائدة النابتة على شاطئ النيل لتناول الطعام وكانت فاطمة ســعيدة مرحــة لوجــود أختها طيبة بينهما ولان اليوم الذى تحلم بــه تقــارب مــن لحظاتها الحاضرة لتبنى مع حبيبهــا روضــه لزواجهمــا السعيد وتركت فهيم وشوقية يتسامران وقامت تستمع إلــى قيثارة الأمواج وهى تعرف للضفاف الخضراء المنتــشية ألحان الحياة .وتتنفس فى عمق من نــسمات الليــل وقــد راودتها الأحلام العذبة اللذيذة التى دائما مــا تعــشش فــى خيال العذارى الجميلات وتــستقى أحاسيــسهن المرهقــة ونسيت نفسها طليقة فى عوالمها الوهمية تحدق فــى هــذا النجم البعيد المتراقص وسط ها لات النور كــأن روحهــا تقوم فى إشعاعاته ولا تود النزول إلى الأرض ولم تــشعر إلا ويد حبيبها تهزها وهو يقول "يالا يا فاطمة احنا سهرنا كتير خالص الليلة دى ياللا لاحسن اختك تتعب "فافاقت من

توهمها وعاتبته فى رقة لانه تركها هذه المدة وحدها غيـــر شاعرة بمرور الوقت عليها ودون ان يبحث عنها .وكانـــت شوقية طوال الطريق تتكئ على ذراع فهيم وتـسأله عمـــا تراه حولها من حدائق ومبان فكان يجيبها متبـسطا حانيـــا ويلقى إليها بالهمسة الرقيقة مع البسمة العطوفة أما فاطمة فكانت مغمورة فى صمتها تائهة فـــى زحمـــة مـــشاعرها المتباينة .

كانت تشعر بتحرج شديد نحو هذا الخليط المتنافر مـــن الخلجات فان فهيم طلب منها تحديد ميعاد لزفافهما فى الأسبوع الماضى واخبرها بأن أختها قد شفيت تماما ولم يبق لـــديها مـــا تتعلل به وعليها إن تتمم انتظار هما الطويـــل بـــالزواج لكنهـــا خجلت إمامة وتعثرت فى ردها وجعلته يشعر بأن الوقـــت لـــم يحن بعد ليربطهما برباط الزوجية رغم فداحة الألم الذى كـــان يطحن أعماقها وهى تؤجله وتطلب فرصة أخرى مـــاذا كانـــت تقول له غير ذلك وقد صرفت العشرة آلاف جنيه التى قبضتها منه مهرا ؟؟إنها أنفقت عشرين ألفا من الجنيهات حتى شـــفيت أختها ولم يبقى لديها ما يجهزها لعرسها او حتى لتـــشترى بـــه سريرا جديدا

ياللمسكينه البائسة ماذا تفعل إزاء غدها وارتباط أحلامـــه بظروفها إنها فقط بالأمس صارحته بالحقيقة المرة واعترفت له

بأنها بددت مهره ونقوده بل آماله وطرزت كلماتهـا بالـدموع والتحسر والألم المخنوق ولكنه طمأنها ولم يستعجلها الـزواج على غير عادته بل تلقي هذا الاعتراف بالـصمت ووعـدها بالانتظار حتى ينصلح الحال كان لم يحدث بالمرة لكنها شعرت بكيانها يهتز ويفور فى عميق الشجون لهذه الطبيعـة الهادئـة المفاجئة فإنها كانت تتوقع أن يثور وينال منها بالتعنيف أو حتى بالتفكير فى التدبير وحل المشكلة فخشيت علـى كيانهـا مـن الإنتقاص ومن تسرب الملل إلى نفسه ففاجأته بقولها أنا حسافر يا فهيم للبلد يوم الجمعة الجاى علشان ابيع نصيبى فـى البيـت اللى ورثناه ويناصفنا فيه عمى عشان نقدر نجهز العفـش فـى أقرب فرصة ..فهيم أنا عارفة قد إيه أنا أسأت اليك ولكن كـل ده غصب عنى ومش بأيدى .

أنا ضحية يافهيم ومكنتش أعرف إن المسألة حتبقى كـده"فـرد عليها فى هدوء :

"معلهش يا فاطمة على كل حال أنت أدرى بمصلحتنا كلنـا "فقالت فى وله ورقة" أما زلت تحبنى رغم كل ده يافهيم ؟؟

- طبعا

وحينئذ ألقت بنفسها عليه تنتحب فى شدة وتقلـب رأسـها فـى صدره كأنها تشعر بألم يمور بداخله ليدغدغ أعصابها المتوترة.

سافرت فاطمة إلى عمها بإحدى مراكز الدقهليـــة لتبيـــع حصتها فى المنزل فرحب بها أجمل ترحيب وكان يستبقيها كلما رغبت فى العودة إلى القاهرة لتطفئ نار الشوق لرؤية حبيبهـــا المنتظر ومر عليها عنده شهر طويـــل أتمـــت فيـــه إجـــراءات التسجيل ثم قبضت العشرين ألف جنيه نصيبها فى المنزل مـــع ألف أخرى "نقطة منه بمناسبة زفافها وودعته شاكرة وتوجهت إلى القاهرة تحمل بين صدرها قلبا مـــضاء الجوانـــب بـــشعاع الرجاء وضوء المنى قلبا يحلم بالسعادة الزوجية والبيت الهـــانئ الذى ستبعث فيه طفلا جميلا يمرح فى جنباته .

وقصدت منزلها حال وصولها إلى القاهرة وهى أشد شوقا إلى أختها لتحتضنها إلى صدرها واشد ما تكون تلهفا لحبيبهـــا فهيم لتزف إليه بشرى الأمل بشرى الزفـــاف ولمحهـــا بـــواب المنزل فى غبار السفر فهرع إليهـــا يـــصافحها فـــي حـــرارة واشتياق ويقدم لها مفتاح الشقة ويقول في براءة "أصل الـــست شوقية سافرت "فقالت جزعة "سافرت فين ؟؟"

- سافرت إسكندرية تقضى شهر العسل فسألته متلهفـــة منـــذ عرة :
- شهر عسل إيه ؟

فرد عليها والفرح يقطر من كلماته :

- ايوه اتجوزت الاستاذ فهيم عقبال عندك ياست فاطمة دا فهيم بك شاب ذوق ولطيف .

والتفت الأرض حولها وبدت فى عينيها كهذه البصقة المنفرة الملتصقة بصندوق القمامة ولاحت عيناها فى الدموع كجمرتين تنضحان بالماء الملتهب فكفرت ساعتها بكل شئ واستنكرت وجودها آدمية بين قطعان البشر ثم رأت نفسها تسير جثة جامدة الإدراك دون أن تعى اى شئ يدب فى طبقة الأرض الغادرة الملعونة كما يدب فوج القمل فى الرأس القذر

إنها لم تنتحر كما عزمت ولم تتماد فى كفرها بالأقدار أو تفقد عقلها وأعصابها بل كل ما فعلته بالنقود الاسيفة هو أن ذهبت إلى البقعة المباركة لتحج بيت الله الحرام وتزور قبر رسوله الحبيب وتشفى ظمأ قلبها اللهفان وتستبدل هذا الحب الأرضي الجنسي بحب أعمق ..وهو حب الله سلام عليك يا فاطمة فى نبلك وتضحيتك أيتها الإنسانة المهجورة فإن فى الدنيا أشخاصا ما خلقوا فيها إلا لإسعاد الآخرين فقط حتى إذا ما حققوا الغاية التى وجدوا لأجلها انتهت مهمتهم وارتحلوا فان العزاء الوحيد لنا فى هذه الدنيا هو أن حياتنا لن تطول فيها إلى ما لا نهاية فانها سنوات تافهه من العمر ونمضى .

بئر الخطية

"يتحمس الإنسان لمبادئ الفضيلة وقواعد الأخلاق إذا لم يكن الزلل من نصيبة أما إذا كان كذلك فانه يصبح عدواً لهذه المبادئ وهادما لتلك القواعد " .

لم ينجب الأستاذ فوزى ناشد سوى ابن واحد كان يدعى "وديع" كانت أمه تحبه حبا جما وتحنو عليه حنوا بالغا وذات يوم جاء الصبى وهو يبكى إلى والده يشتكى إليه خفير المزرعة التى يمتلكها والده ولما تساءل الوالد عن السبب أجاب

الفتى بأنه لا يعرف إنما الخادمة التى تعمل فى المنزل وكانــت تعطف عليه هى التي أوعزت إليه بأن يتقدم نيابة عنهــا إلـــى والده شاكيا له الخفير ونادى الأب على الخادمة فراعه أن يلحظ آثار الدموع على وجنيتها فعرف أن فى الأمر سر فأخذها مـــن يدها إلى مكتبه وسألها عما ألم بها فأجابته وهى منكسة الـــرأس خفيضة الصوت بأنها سقطت فى بئر الخطيئة وان الذى مهــد لها طريق الغواية هو الخفير الذى اســـتهواها بالتـــضليل حينــا وبالخداع أحيانا حتى زلت قدماها فى الهوة السحيقة .سمع سيد الضيعة هذه الكلمات فوقعت من قلبه وقعا عميقــا فقــد تـــأثر بالدموع التى كانت تذرفها الفتاه رغما عنها وأمر بان يستدعى الخفير فمثل بين يدى سيده الذى واجهه بتهمته فما كان منه إلا أن اعترف بالحقيقة صاغرا .ولم ير الرجل بدا مـــن ان يخيـــر حارسة بين اثنين إما إن يصلح خطأه وهذا لن يكون إلا باقترانه بالفتاة وإما أن يطرد من العمل ويبلغ عنه الـــشرطة وقبـــل ان يختار المذنب احد هذين الأمرين طلب مهلة يوم واحد كى يبت خلاله برأى حاسم ومضى اليوم وفوجئ الجميع فى اليوم التالى بفرار الخفير هربا من الفضيحة والعار ومن ســـطوة القـــانون ورهبة العقاب وانطوت الخادمة على نفسها تبكى شرفها المثلوم وتندب حظها التعس حتى كان ذلك اليـــوم الـــذى فتحـــت فيـــه ذراعيها لأحضان النيل مقدمة من ذاتها قربانا ثمنا للأحلام التى

لم تتحقق إلا فى قاع اليم وعبثا حاول الأستاذ فوزى ناشـد أن يعثر على المجرم الهارب ومرت السنين سراعا وفـى غمـرة الأحداث نسى الأستاذ فوزي ما كان من أمر الخادم الغادر حتى كان ذلك اليوم الذى طالع فى الصحف نبأ الحكم علـى الخفيـر فى قضية قتل بالموت وتنفيذ الحكم بالإعدام شنقا .

وهنا فقط عادت الطمأنينة إلى قلب الرجل وتأكد مـن أن السماء لم تغفل عن الماضي ولن تتراخى فـى الجـزاء مهمـا طالت الأيام .

وكانت الأسرة قد عثرت على خادمة أخرى تدعى "إيفـون "وقد أبدت هذه الفتاه الجديدة نشاطا وإخلاصا مما جعلها ترتقي مع تقدم الزمن حتى صارت يوما المربية الخاصة للفتى "وديع "

وكان الصبي قد أصبح يانعا حين وصـل إلـى التعلـيم الثانوي وفى هذه الأثناء كان لا يطيق فـراق مربيتـه فكانـت تصحبه فى السيارة يوميا إلى المدرسة وتنتظره مهمـا تـأخر حتىٰ تعود به .

وقطعت الأيام شوطا كبيرا من عمر "وديع " فقد نمـى وترعرع فى ظل هذا العطف الشديد الذى تسبغه عليه "ايفـون "المربية وحز فى نفسه الأمر الذي أصدره أبوه بعـدم مرافقـة "ايفون" له أثناء ذهابه إلى المدرسة وإيابه منها فقد صـار فـى السن التى تسمح له بان يذهب وحيدا دون الحاجة إلى شـخص

أخر غير السائق الهرم وكان هذا الافتراق العادي بمثابة نقطـــة تحول فى حياته إذ شعر بإحساس عجيب وبدا له الأمـــر غيـــر عادى وأحس بموجه عاتية من المشاعر الغريبة تجتـــاح نفـــسه القلقة ولم يقطن إلى ما يدور في أعماقه إلا بعد أن رحل إلـــى القاهرة حيث الجامعة .

وهناك دخل كلية الزراعة كما أراد له مجموعة وكما طلب إليه والده كي يدير المزرعة وصار وديع على موعد فى نهاية كل أسبوع مع قلمه يخط به رسالة إلى " إيفون " يبثهـــا نجـــواه ويكاشفها بحبه حتى إذا ما أقبل اليوم الأخير من الشهر ســـارع بالرحيل إلى بلدة وكان أول من يلقاه هو "إيفون" الـــشابة التـــي أخذ يردد صفاتها في نومه ويقظته ويطارحهـــا الهـــوى عنـــد عودته وقدومه .

وانتهي وديع من دراسته وعاد إلى مسقط رأسه كي يظـــل إلى جانب "إيفون" التي أفضت إليه بمكنونات نفسها وما يمليـــه عليه ضميرها "إنني أحبك يا وديع ولن أكون لغيـــرك مادمـــت على قيد الحياة ولكن ألا تري شقة البعاد التي بيني وبينك ؟ ألا تذكر أنني قبل كل شئ إحدى خادمات سيدي الذي هو أبـــوك ؟ ألا تري الحواجز قاسية لا ترحم والموانع قوية لا ترأف ؟

لا يا وديع اجنح إلى الحقيقة وجابه الواقع وإيـــاك إيـــاك أن تتوغل في الخيال وتتغلغل في الأوهام !!! .

بهذه الكلمات كانت تصارح وديع الذي لا يلبث أن يعود إلى وعيه ويرجع إلى عقله .

ولكني لن أنفصل عن قلبي ولن أتجرد من عاطفتي هكذا قال لنفسه ثم لا يفون التي لم توافقه الرأي بادئ الأمر ولكنها عادت فرضخت في النهاية إذ لم تقو على الصمود أمام الشباب الغائر والكلمات الثائرة التي تخرج من فم أرستقراطي المولد ديمقراطي النزعة .

وبدأت تظهر مفاتنها وتكشف عن مستوراتها حتى وقع المحظور وأصيب الهدف وفي الحال تذكر وديع قصة الخفير وعلى الفور تذكرت إيفون قصة الخادمة الضحية .

ومرت الأيام وثمرة الجريمة تنمو معها فبدأت أحشاء الفتاة تظهر علامات الحمل فانتابت إيفون عدة نوبات عصبية لانزعاجها من النهاية المتوقعة .

وكان هو يشاهدها فينصهر لها قلبه ويذوب لحالتها فؤاده .

وذات يوم قرر أن يفعل أمرا توجه إلى والده لا ليشكو إليه الخفير ولكن ليشكو إليه نفسه التي فاضت بالاعتراف منذ أن فتح فاه وبدأ يتكلم وأصيب الوالد بنوبة إغماء تناثرت أثناءها أمام عينية صور الماضي القريب وتمثل أمامه الحكم الذي أصدرته عدالة السماء على الخفير وتتابعت أمامه التفاصيل وكيف أنه كان يناصر الفتاة في عنف متذرعا بالفضيلة وقواعد

الأخلاق وهاهو ذا يري الآن ابنة في موقف خادمه الغادر فهل يرتضي أن يأمره بالعمل الذي سبق أن أمر به ذاك هل يسمح له باتخاذ " إيفون " زوجة له أم ماذا يفعل محوا للعار واجتنابا للفضيحة ودرءا للخطر .

وتلاحقت تجاهه أشباح المستقبل الأسود تخيل مصير الفتاة وهي تعانق الموت راحلة إلى العادل الذي لن يدعه يفلت من يد القصاص ثم تصور كيف يكون موقفه حين يسمع أن ابنه الوحيد قد تزوج بخادمته ؟

ماذا يقول للناس ؟ وماذا يواجههم ؟ وبأي مبرر يحدثهم ؟

لا ريب إذن في أن رائحة الفضيحة ستزكم الأنوف في الحالتين .

إذن فليختار الأهون وهل ذلك في حاجة إلى اختيار ؟

واستدعى والد الفتاة وأنبأه بكل شئ وقدم إليه مبلغا خياليا ليأخذه ويرحل بابنته ولكن الرجل وافق على الأمر الأخير دون الأول وألقي بما وضع أمامه من مال في وجه سيد الضيعة الذي دهش للمفاجأة وقد حفظ عن الوالد الملثم عبارة خالدة هي "الشرف لا يعوض بمال" .

واستراح الأب ولكن وديع لم يسترح فقد فوجئ بعد هذا الحادث بشهور ثلاثة برسالة مطولة من والدة "إيفون" تقو فيها :

"والآن لتهدأ نفسك وليقنع ضميرك فقد تزوجت إيفون بمن هو أعز منك وأرفع وأجدر منك وأنبل ... "

وثارت دخيلة وديع لهذه الرسالة وعرضها على والده فكان على العكس من ابنه إذ شعر بالراحة والطمأنينة يتسربان إلى نفسه وبدأ وديع يتألب على والده تحت تأثير وخزات ضمير التي كانت سببا في الأرق الذي حطم أعصابه وملك أوصاله .

ولم يكد الأسبوع لينتهي حتى كان ساعي البريد يحمل إلى وديع رسالة ثانية :

" فاتني في الرسالة الماضية أن أدعوك إلى حفلة زواج "إيفون" ولكن حانت فرصة أخرى لأدعوك إليها إيفون قد ماتت".

وأغمي على وديع بينما تخضبت عيناه بالدموع وهو يقرأ الكلمة الأخيرة وألقي نفسه يهتز هزات لا شعورية توحي بما امتلأ به قلبه من حزن وأسي بالغين .

وعرض الخطاب الجديد على والده فتمتم بالرثاء قليلا ثم عاودته سمات الفرح ثانية فقد أيقن أن بموتها ماتت الفضيحة المرتقبة إلى الأبد .

ولكن وديع استشاط غضبا وعجبا معا إذ كيف تتزوج في أول الأسبوع وتموت في نهايته ؟ هل كان زواجها حيلة لاغتيالها؟ هل أخذها هذا الزوج ليشبع رغبته ثم تخلص منها؟

هكذا حدث نفسه وقد غاب عن ذكائه بأن كلمتـــي " قتـــل أو اغتيال" لم يرد ذكرها في الرسالة بل قيل فيها أنها "ماتت" فقط وكأنه نسي أن الله حين يريد أن ينفذ مشيئته لا تعفيه الأوقـــات حتى إذا لم يكن قد مضي على زواجها ساعة واحدة !!! .

وبقيت نهاية "إيفون" غامضة في ذهنه وفي الصباح فـــوجئ القصر بغياب الفتي الملهوف .

لقد سافر إلى بلدة "إيفون" وتوجه إلى منزلها وهناك لم يجـــد أحدا غير والدتها التي ما أن رأته حتى عنفته بغليظ القول بينما هو يؤكد لها بأنه كان يعمل للهرب والملجئ إليها للزواج مـــن ابنتها حين وصلته الرسالة الأولي الخاصة بزواجهـــا ومـــا أن سمعت المرأة كلمة "زواجها" حتى علت وجهها ابتسامة مشرقة فتعجب وديع ثم سألها .

ولكن من تزوجت ؟

فردت عليه وهي تشير إلى أعلا .

السماء يا بني .

فقال متعجبا .

- إنني أعلم ما تعنيه فأنا أعرف أنها قد ماتـــت ولكـــن مـــن تزوجت قبل موتها ؟
- وهل كان يهمك زواجها في شئ ؟

- كيف لا وقد ذكرت لي أنه أعز مني وأرفع وأجدر مني وأنبل فردت في صوت خفيض .
- ما تزوجت قط يا بني ... بل بعثنا إليك بذلك لعلمنا بأنك قد تفهم ما نعني ولكننا أردنا أن نؤكد لك أن معني زواجها هو "موتها" فأرسلنا لك الرسالة الثانية وهطلت الدموع على وجنتيه وفي حشرجة آسفة سألها :
- أين يقع قبرها لأضع عليه إكليلا من الزهور ؟

فقال وهي تؤيد كلامها بيديها :

- لا ... لا تضع على قبرها هي إكليلا من الزهور بل ضع هذا على قبر ابنك الذي ولد لحسن الحظ ميتا !! .
- وبدأ يفلت زمام نفسه فصرخ من هول الصدمة
- أخبريني بموضع قبريهما وسأضع لهما الاثنين فأجابت في هدوء :
- لا يا بني ضع لطفلك فقط فهي لم تدفن فبهت وهو يقول :

أكاد لا أفهم شيئا كيف لم تدفن ؟

هل أحرقت مثلا أو غرقت ؟

- لا هذا ولا ذاك أنها ماتت حقيقة ولكن عن هذا العالم الشرير وهذه الدنيا الكاذبة لقد دخلت الدير يا بني فهي حية لم تمت ولم يكد يسمع هذه الكلمات حتى انتفض برعشة خفيفة من المفاجأة وقال بعزم – وأنا أيضا إلى هناك .

وتركها ومضى حيث توجد " ايفون " وهناك وجدها فـــي
زي الراهبات وبالطبع لم يسمح له بالبقاء معها ســـوى دقـــائق
كانت آخر كلماته فيها إلى اللقاء يا ايفون إلى اللقاء في الـــسماء
وذهب على الفور إلى أحد الأديرة باسم جديد .

الفهـــــرس